صراط

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (1704) السنة السابعة

الخميس (21) كانون الثاني 2010

ومضات منسجمة

2

محمد مهدي البصير كما عرفته

10

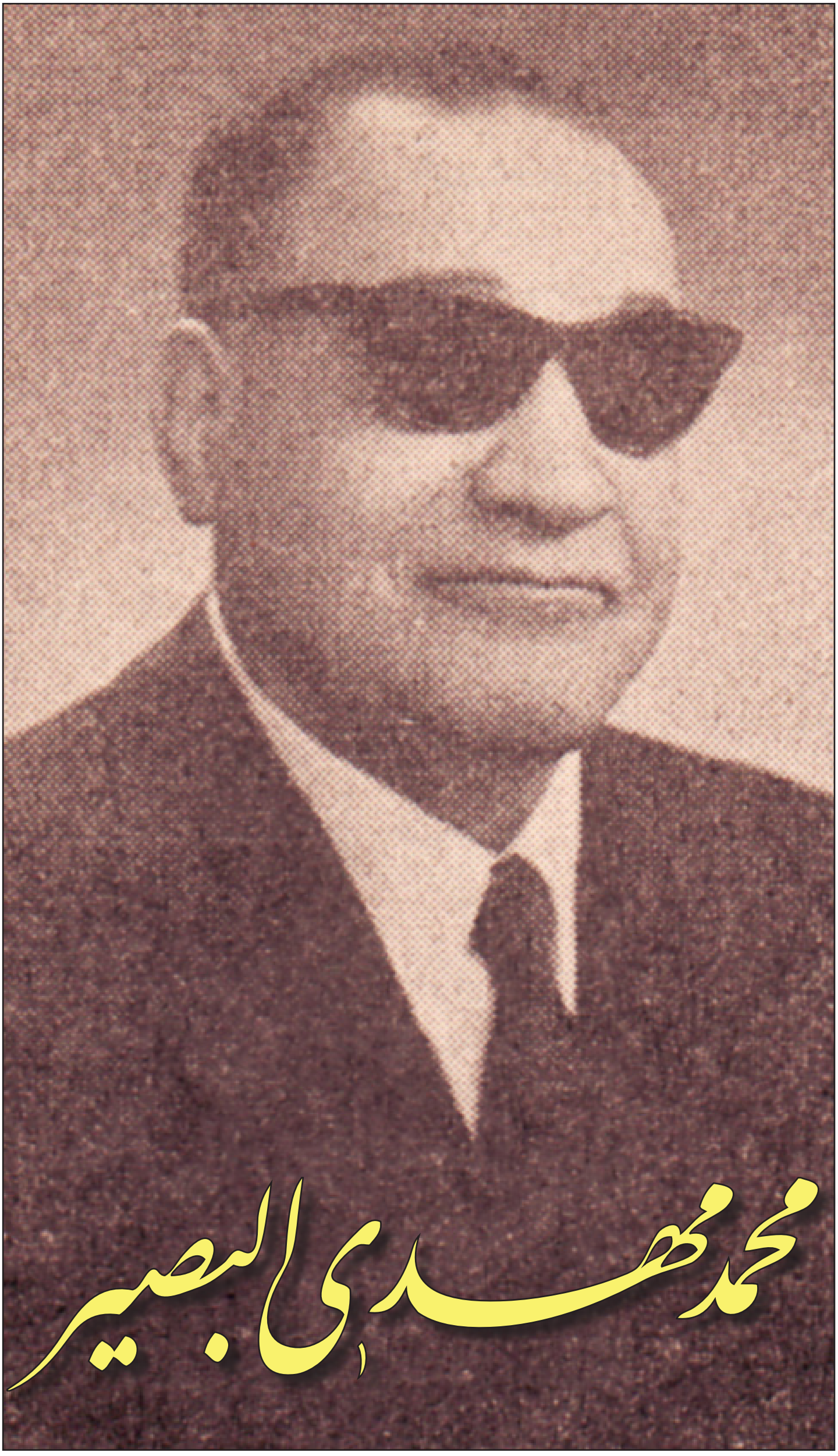

محمد مهدي البصير

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

ومضات منسجمة

د. علي جواد الطاهر

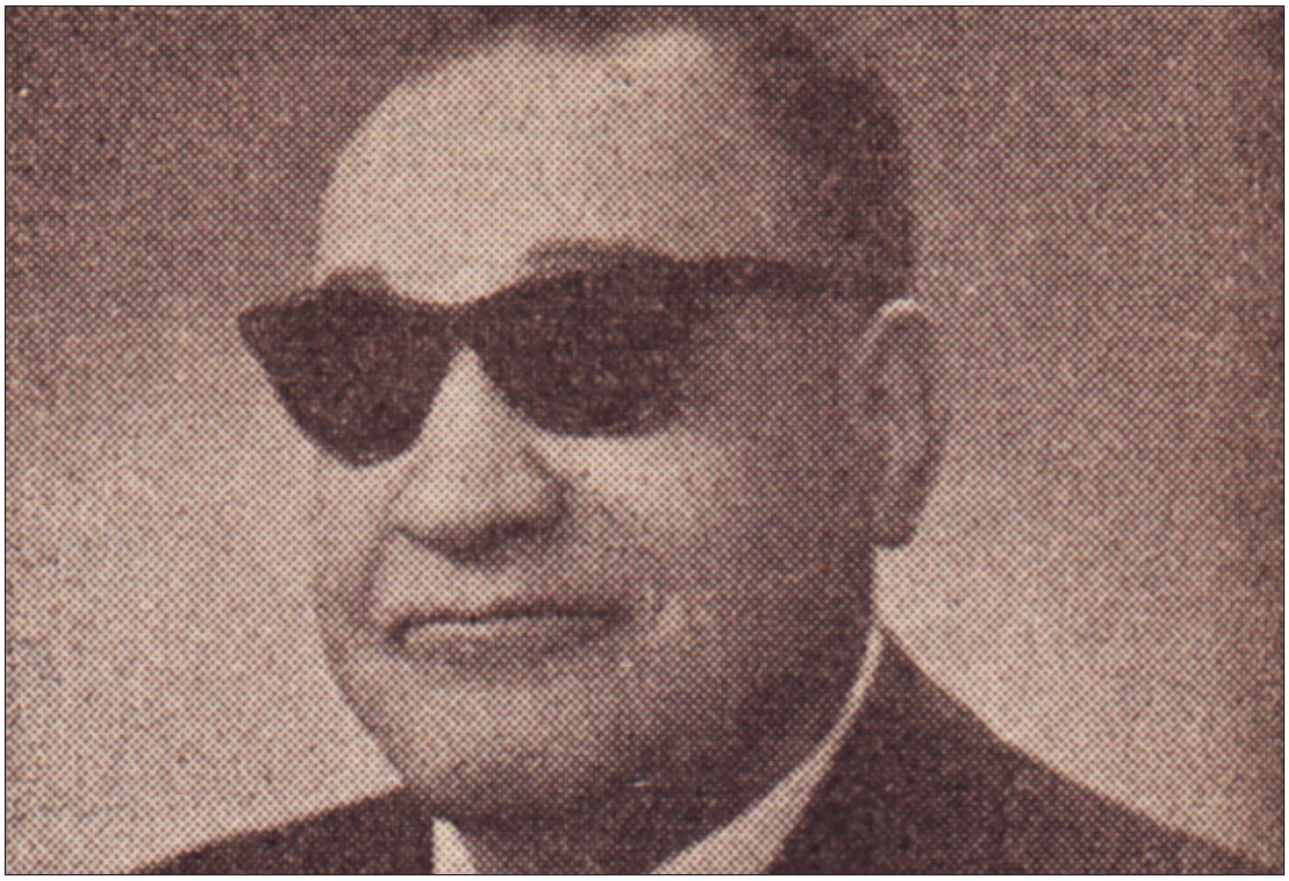

نحن في الحلة واسطورة اسمها الشيخ مهدي تدور، هو أعمى.
والمسألة معروفة ،كما يعرف اهل اثينا عن هوميروس.
اذا سمع الشيخ مهدي القصيدة مرة، حفظها خيراً من صاحبها واذا حفظ قصيدة معروفة، زاد عليها من وزنها وقافيتها، واذا صعد المنبر يقرأ المقدمة، شرع في قصيدة يعرفها الحاضرون، ويعرفون ناظمها ومناسبتها... ثم تلفت يمنة ويسرة ، وسأل: هل جاء الشيخ؟ يريد والده.
فأذا أجيب بالنفي، استغل الفرصة ، وقرأ شعراً لم يسمعه الحاضرون من قبل، لأنه هو الذي نظمه، وزاده على وزن القصيدة وقافيتها، وهو الذي خرج بالقصيدة من الحزن والنحيب الى التفاؤل والثورة، يرعد ويزبد ، والقوم في عجب عجاب، وليكن بينهم الساخط او الخائف والا، لما كان اسمه الشيخ مهدي. لقد أخذ نصيبه من علوم زمانه، وأقبل على الأدب بوجه خاص، وحفظ الشعر وزاوله منذ الرابعة عشرة.. واستمر يقرأ –أي يقرأ له –ويحفظ.
ولايميزه هذا بشيء،
لأنه فيه واحد من مئات وألوف،
تزخر بهم بلدته والبلدة المجاورة لها،
ولايريد لنفسه ذلك،
ولا تريده له نفسه،
ان شيئاً فيه أقوى من البيئة الراكدة،
ان تمردا في جلده،
وثورة في قلبه،
وضجة في ضميره...
ولايمكن لمن كان كذلك، ان يقر على حياة كالموت وخصب كالجدب، فليبحث –اذن– عن السبل. والسبل وعرة ، ولكنها قائمة تجتذب اليها النابهين.
وليطلع على ما يجري في العالم، والاطلاع عسير ولكنه ممكن لمن جد في السعي اليه.
هناك كتب ومجلات ترد من لبنان ومصر، وهناك "المقتطف" المجلة التي تدخل الثورة الى النفوس المستعدة لها، تدخلها دهشة اولا، واطمئناناً ثانيا، فليتق – اذن–سراً بمن تصل اليهم المقتطف، وغير المقتطف، وليستمع، وليتأمل ، وليحكم.
اما فساد الحكم العثماني، فلا يستدعي كتابا او جريدة، واما فساد الحكم الانكليزي ، فلا يقتضي دليلا أو نقاشا.
ويلتقي الى لداته في الفكرة، وتستحل الفكرة عقيدة، وتستحيل العقيدة شعراً، وتصل اليه أخبار الوطنيين في بغداد، فيرضى حيناً ويسخط حيناً، من رضاه، انه أسس في الحلة فرعاً لحرس الاستقلال، ومن سخطه انه رأهم يقفون من القضية موقف الضعيف، فود لو كان قريباً منهم، لغير –اذن –من حالهم، وأقنعهم بأن الحق يؤخذ من الانكليز في العراق، وليس في فرساي ، بالقوة لا بالشكوى ، وللحرب معنى وللسلام معنى.
ود ذلك،
ولكن، اين من أين؟
ان بغداد القريبة بعيدة على من كان في ظروفه،
انها تقتضى مجازفة
والمجازفة في دمه
والدم ينتظر الشرارة
وها هي ذي الشرارة تقترب:
كانت الحلة في أوج ربيعها، ومضى الشيخ الى الشاطئ، يستمتع بنسيم وطنه.. وسار قليلاً...واذا بجندي من جيش الاحتلال يزعق:
–ابعد، ارجع، ممنوع...
وقال الفتى الشيخ في نفسه:
–ممنوع؟! عجيب! أفي بلادي ويمنعني الاجنبي؟ أيمنع الوطني الماء والهواء؟! لا قرار على هوان بعد اليوم.
ولم أمتعته الخفيفة
ولحق ببغداد،
تصدر في الطليعة الوطنية،
يخرج "الاجتماعات الدينية الى اجتماعات ثورية"
ويفجر "البركان" شعراً، وخطباً، وتنظيماً، وتدبيراً... كان و:انه لابد منه للثورة.
وأدرك الانكليز خطره، وعملوا جاهدين على ردعه ، فبعث الحاكم العسكري على ردعه،
–من اين انت؟
–من الحلة.
–لم جئت الى بغداد؟
–مريض...أتداوى.
–أما كان يمكن ان تتداوى في الحلة؟
–لا.
ويعود يؤجج ويوجه.
يظهر ويختفي، يسجن ويطلق،... خلال الثورة وبعدها...أجل ، وبعدها.
يكمل ما يكمل من السجن ويعود يشارك في تأسيس الحزب الوطني..
ويتقدم اعضاءه المنفيين الى هنجام...
واذا سمحت السلطات المحتلة للمنفيين بالعودة الى بغداد، فرضت على الشيخ مهدي، وحده، الاقامة في البصرة تحت مراقبة الشرطة.
ثم سمح له بالعودة الى بغداد ن بعد ان قررت سلطة الاحتلال وضعاً جديداً يصعب ان يؤثر فيه الشيخ كما كان.
–فماذا يفعل؟ وبم يتعلل؟
–"تاريخ القضية العراقية" قبل ان يضيع.
التدريس في جامعة آل البيت بما يوفر رزقاً حلالاً الوصول بالشك الى اثبات الصحيح من الشعر الجاهلي –غيرة على الحقيقة.
مع مكانة وطنية مرموقة.
وصلة غير منقطعة بالقليل الذي بقي من الوطنيين ومحاولة غير مجدية للعودة بالحزب الوطني وفكرة تمكنت من نفسه للدراسة العالية في فرنسا – على ما في الفكرة من مخاطر المجازفة، ولما في الفكرة من مخاطر المجازفة، انه اذا اقتنع صمم، واذا صمم نفذ، وليكن ما يكون!
وأين المفر؟!
تلقاه في باريس ماسينيون وتعقبه من بغداد الكائدون ، ولكنه وطن النفس، منذ البداية، على اسوأ الاحوال.
يمضي في الخارج سبع سنوات ويعود ومعه دكتوراه ورفيقه كفاح يتولى التدريس بدار المعلمين العالية، بعد صعوبات، وخلال صعوبات، فيكون ودعك من قيل وقال –استاذاً – مدرسة، في المنهج ، وفي وصل العلم بالخلق ورعاية المواهب، واعتماد الذكاء والرأي والذوق قبل الجمع والحشد والحواشي...
والشدة الى ما تبدو معه ظلماً وجوراً، دون ان تكونهما ، لأنها من الحزم، واللين الى ما يبدو معه ضعفا وغفلة، دون ان يكونهما لأنه من الابوة.
وكم عالج عقوقاً بسماح
وأحسن الى من اساء ، اجل فالشدة ليست ، لديه نقيضة اللين –وهو المرء لايتناقض، ولايقول ما لايفعل ، ولا يلزم الاخرين بما لا يلزم نفسه.
انه البصير من أي النواحي أتيته، ومن هنا سهولته وصعوبته على من يجهله.
اجلا يا صاحبي ان الطالب منا يقترب من السنة الثانية، فيملؤ البصير عالمه: يحبه ويخافه، يعد له العدة ويحسب الحساب، وينظر مخلصاً فيما له من مؤهلات ، لأنه مقبل على استاذ جاد، يمخض طلبته ، وينفذ الى قرارهم، فمن كان منهم على حظ من ذكاء وثقافة وكياسة اطمأن، وانتهز الفرصة السعيدة، اما اذا كان ذا نصيب من موهبة الشاعر ، فهو السعيد السعيد.
انه لشرف ان تكون تلميذاً للدكتور البصير.
فليس سهلاً ان يكون الاستاذ شخصية، له مكان باذخ في المجتمع، وليس سهلا ان يتهيأ استاذ يعد التعليم أشرف مهنة، ويؤمن بالأدب ايماناً مطلقاً، وليس سهلاً ان تشع الوطنية من استاذك في حركاته وسكناته، قاصداً وغير قاصد.
ان لشخصية استاذنا صفات تتوحد وان تعددت، فهي تنسجم مع بعضها انسجاماً تاماً، تكون به كلا لايتجزأ.
وان شئت الاختصار، وفي حدود ما هو غريب في مجتمعنا، خصصت من تلك الصفات الاستعداد للتضحية بما يحط من الشأن ويمس بالكرامة.
ان له من كنوز الزهد، ما يعصمه من الخضوع لسلطان الجشع، ولديه من رصيد العزة، ما يحفظ نظافة حاضره موصولة بنظافة ماضيه، والرجل المنطقي لا يفسد الدائم بالعابر والاجتماعي بالفردي، والمعنى بالدينار وعلى قدر ما يضحي الانسان من مطامع الدنيا.. يكسب. والبرهان ساطع.
اجل يا صاحبي، وليس قليلاً أن يراجع امرؤ تاريخه الطويل، فيراه ناصعاً، ويقلب صفحات ضميره، فيراها نقية.
ولا تزعجه– بعد ذلك – النهاية التي هي اخر حياة الاجساد..والمنطقي يظل منطقياً حتى في الساعات الاخيرة من عمره..
وهكذا كان..
ففي الساعة الثالثة من فجر ذات يوم، استيقظ ، ثم نام ولم يستيقظ. لقد انتهى!
ولم ينته. فالكبير يولد عندما يموت..،اذا قيل انتهى...قيل ابتدأ... والبرهان ساطع.

مجلة الاقلام ١٩٨٧

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

شاعر ثورة العشرين

د. صلاح خالص

كم كنت اتمنى ان اقف متحدثا عن استاذي البصير في غير هذا الموقف الذي يملأ فيه القلوب، ويعصرها الحزن..كم كنت اتمنى ان يسمع البصير بإذنيه ابناء هذا الشعب وهم يوفونه ما يستحق من تقييم وتقدير.. لقاء ماقدمه لهذا الوطن ولهذا الشعب من خدمات جلى، وما أداه من واجبات لا تقدر..

لقد عرفت الدكتور محمد مهدي البصير استاذا جليلا لايعوض وصديقاً، وفياً لا ينسى، ولكني عرفته وعرفه الشعب العراقي كله قبل ذلك علما شامخا من اعلام الوطنية وصوتا هادرا من اصوات الثورة، وشاعراً بليغاً مثل ضمير هذا الشعب، وعبر عن ارادته ومطامحه في احرج ساعات تاريخه، وخلد الى ابد الابدين روحه الوثابة، وتعلقه المتين بالحرية، وعزمه الذي لايلين على نيل حقوقه وتحطيم كل انواع الظلم والاستبداد، بقصائده الرائعة وادبه الخالد..

واذا كنت آسف في هذه اللحظات لشيء، فأني آسف لأنني وغيري من ابناء هذا الشعب – المعنيين بالادب والسياسة والمجتمع –لم يوفوا البصير شاعر ثورة العشرين العظيمة.. شاعر الجماهير المنتفضة المتمردة، شاعر الوطنية الملتهبة والاخلاص لهذه التربة المعطاء، اقول اني آسف لأني وغيري من ابناء هذا الشعب لم نوفه حقه من التقييم والتقدير والوفاء لما قدمه لهذا الشعب وهذا الوطن في حياته المليئة بالعطاء.. آملاً ألا يكون الحال كذلك بعد انتقاله الى دار البقاء..

لقد قضينا العمر كله نتحدث عن الادب الملتزم وندعو الى الشعر الثوري ونحض على السير مع الجماهير والاخلاص لتربة هذا الوطن..

وبين ظهرانينا شاعر كان المثل الاعلى لكل ذلك.. المثل الاعلى للالتزام والثورة الجماهيرية والوطنية.. شاعر ارتبط اسمه وادبه بمأثرة من اعظم مآثر هذا الشعب وحدث من اهم الاحداث في تأريخه الحديث...

ولكننا مع ذلك كله كنا نمر عليه مرور الكرام مع اشارات بسيطة او دون البسيطة..

ولا أقول ذلك –ايها السادة – لان البصير كان في حاجة الى التقييم والتقدير، ولكنني اقوله لاننا نحن – ابناء الشعب – في حاجة الى ذلك.. في حاجة الى ان نحب هذا الوطن.. في حاجة الى ان نتعلم كيف نعمل من اجله ونضحي في سبيله.. في حاجة الى ان نذكر البصير والى ان نردد – ما قاله البصير، ونعلم اولادنا واجيالنا المقبلة لذلك.. فمن حب الوطن ينطلق الاخلاص في العمل والالتزام بالواجب.. ومن حب الوطن ينبثق الاخلاص للجماهير والتعلق بالشعب والتضحية في سبيله.. ومن حب الوطن تنفجر الثورة ضد الظلم والاستبداد والتخلف، كما يقوم على اساس حب الوطن بناء مستقبل الشعب وتشييد صرح تقدمه وازدهاره ورفاهه..

لقد كان البصير استاذا فذاً في تعليم جماهير زمانه والاجيال المقبلة المتتالية حب الوطن والتعلق به والتضحية في سبيله.. واكاد اقول جازما انه ما من شاعر عربي قديم او حديث بلغ ما بلغه البصير في قوة التعبير عن حب الوطن والتعلق به والاخلاص له والتضحية في سبيله.

البصير كان في حاجة الى التقييم والتقدير، ولكنني اقوله لاننا نحن – ابناء الشعب – في حاجة الى ذلك.. في حاجة الى ان نحب هذا الوطن.. في حاجة الى ان نتعلم كيف نعمل من اجله ونضحي في سبيله.. في حاجة الى ان نذكر البصير والى ان نردد – ما قاله البصير، ونعلم اولادنا واجيالنا المقبلة لذلك.. فمن حب الوطن ينطلق الاخلاص في العمل والالتزام بالواجب.. ومن حب الوطن ينبثق الاخلاص للجماهير والتعلق بالشعب والتضحية في سبيله

ان ضاق يا وطني عليّ فضاكا
فلتتسع بي للأمام خطاكا
أجرى ثراك دمي فان انا خنته
فلينبذني ان ثويت ثراكا
بك همت بل بالموت دونك في الوغى
روحي فداك متى أكون فداكا
أتراك تضمن لي كرامة مصرع
فيه أبيت مجاوراً صرعاكا
هب لي بربك موتة تختارها
يا موطني أفلست من ابناكا
ان يقتضب نفسي فما لي منة
أو لم يمن به على هواكا
أو تخترم نفسي المنون فانما
هي كل ما عندي وبعض جداكا
فليتحد جسمي بتربك باليا
ولتقترن ذكراي في ذكراكا

ايـة عواطـف ثائـرة جياشـة.. وأي شعـور فياض متدفـق.. واي حـب لا يوازيـه حـب في الارض يدفـع الانسـان الى اقصـى التضحيـة والبـذل.. وكيف لا يتمـرد على الظلم والاستبـداد والاستعمار شعب تنفث فيـه هـذه الـروح الوطنيـة الوثابة، وتحقن عقـول ابنائه بهذه العواطف المشبوبـة... لقـد كان الفقيـد الغالي يقـول حينما كنت اعد معـه بحثا عن ثـورة العشريـن "لقـد صنـع الشعر الثـورة كمـا صنعتـه.." وقـد صدق تماماً..فبـدون هـذا الغـذاء الفكـري والعاطفـي الـثر، مـا كان لشعـب ان يتحـرك ولثـورة ان تقوم..لقـد كان البصـير نموذجا حيـاً لهـذا التفاعل الجـدلي بـين الثـورة والفكـر، بـين الثورة والادب..

ليحطم المستبعدون قيودهم
فالجود أيأسهم من الاعتاق
ولسوف اكسر غل عنقي جاهدا
ان لا أسلمها الى الاطواق
فاشق من أسري علي تكرم
يد اسرى فيه تحل وثاقي
واذا كفتك القيد رأفة أسر
خلفته عندك منه الاطلاق
أنا يا رفاقي لا أريد سلامتي
فتذكروني ان هلكت رفاقي
ان لم تعش نفسي الابية حرة
فلأسعين بها الى الازهاق
لأجاهرن بما تجن ضمائري
وليكثرن وسائل الارهاق
ولأصعدن الى المشانق نازلاً
لثراى او أطأ السها ببراق

هـذا هـو الشعـور الذي صنـع ثورة العشرين كمـا صنعته..هذا هو شعر الشعـب الثائر والجماهير المتمردة.. شعـر الوطنيـة الحقـة والاخلاص الـذي لا يقف عند حدود.. شعر ثورة العشريـن الخالـدة التـي زعزعـت اركان الاستعمـار في وطننا العزيز، ورسمـت طريـق الكفاح أمـام شعبنا المقدام.

فمـا أجدرنـا ونحـن نخوض غمـار ثورة تمـوز الجبارة من اجل تصفية مواقع الاستعمار وضرب مرتكزاته ، وبنـاء مستقبل هـذا الشعب وتشييد صـرح تقدمـه وازدهاره...أقـول ما اجدرنـا ، ان ننحني باكبـار واجلال أمـام ذكرى ثائر كبـير واديب ثوري عظيـم .. وندعـو بالحـاح الى ان يحتـل مكانـه الـذي يستحقـه في ضمائر هذا الجيـل والاجيال المقبلة، بـان ينشر انتاجـه في اوسـع نطاق ولاسيما ديوانه البـركان الذي يضم صفـوة قصائده الوطنيـة، وان يقام له تمثـال في احـدى ساحـات بغداد يخلـد شاعر ثورة جبـارة من ثورات شعبنا المجيد، ومأثرة خالدة من مآثر تاريخنا الحديث..

مجلة كلية الاداب ١٩٧٥

وفـــــاء للبصيـر

د. ابراهيم السامرائي

عرفـت استاذنـا الجليل في هـذه العمارة العتيـدة منذ اكثر من ثلاثين سنة فقد تلمذت له مع صفوة من الاخوة ما زال نفر منهم يعمـل فيها الان. وقـد تخرجت به معهـم، وكانت شهـرة الفقيد الكبير قد سبقت هذه الحقبة ذلك اني ما زلت اذكر اني كنت اردد انشودة:

وطني والحق سينجده /ما زلت بحبي اعبده.

مـع صبية المكتب القـديم ثم ما زالت استذكـر ان معلمنا القديم كان يطلـب الينـا ان نستظهر قول البصـير في مقطوعة وطنية حماسية مطلعها:

ان ضاق يا وطني عليّ فضاكا/
فلتتسع بي للأمام خطاكا

أقـول رأيت الفقيد الراحل وكان ملـء الاسماع علماً من الاعلام فقـد كان ثائـراً مجاهداً له من مواقف الرجـال ذخيرة قيمة، وله من شجاعتـه ما لايحتاج الى دليل، وآية ذلك انه كان يسعى الى الصعـاب فلا يتردد عن سلوك المركب الخشن، فلم يقنع مثلا بما ثقـف مـن ثقافة قديمـة تعضدها شاعريـة أصيلة بـل سعى الى المزيد فقذف بنفسه بعيداً عن الوطن فكان ان ثبت وجاهد وقاوم حتـى خرج منتصـراً ، تلك هي معركته الثانيـة في سبيل العلم، فليس الذهاب الى فرنسا سهـلاً، وليس التعليم الحديث واللغة الفرنسيـة مـن الامـور الميسورة، وليـس التعود علـى اساليب الأوربيـين في البحث مما يدركه المرء بيسر، ولكن ارادة الفقيد الراحـل ذللت المصاعب ويسـرت العسير فعاد البصـير استاذاً كبيراً شهدت له اروقة الدرس ومباحثه النافعة.

رحـم الله الفقيـد الراحل واسكنـه رحب جنته والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جريدة الجمهورية تشرين الاول ١٩٧٤

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

استاذي الخالد

الدكتور علي الزبيدي

لا اذكر انني وقفت مؤبناً استاذا من اساتذتي ورجلا له مكانته وجهاده في ميادين الوطنية والادب والاخلاق..
وأسالٍ الله تعالى ألا يتكرر موقفي هذا وان يمد في عمر اساتذتنا وزملائنا جميعا..وان كان لكل اجل كتاب ولكنه سبحانه وتعالى قادر على كل شيء.

لا اذكر اني عانيت حيرة وارتباكا اكثر مما اجد الان لان البصير رحمه الله وان كان لنا استاذا وكنا له تلامذة ، الا انه كان عندي اكثر من استاذ، كان ابا واخا وكان صديقا وكان مربيا وكان قدوة متنوعة الاشكال ولهذا تتعدد المشاعر في نفسي وتتداعى وتتكاثر الصور في مخيلتي ، فأيا منها اختار لموقف كهذا؟ هل اتحدث عن عمله الثر، او عن وطنيته الشعلة، او عن اخلاقه الورد، او عن مشاعر الوداد والعطف والحنان التي كان يغمرنا بها فنحس انه الملجأ الذي نلجأ اليه كلما احتجنا الى مساعدة الاستاذ والصديق والاب والمربي والموجه والوطني المخلص، هذا الثراء في شخصية البصير، رجل المآثر والمواقف القومية والوطنية الجريئة، هذا الثراء هو مصدر حيرتي وحيرة كل من يؤبن البصير ويرثيه وكل من يريد الكتابة عن واحد او اكثر من الجوانب المضيئة في شخصيته وسيرته. ولا ريب في ان ما يمتلئ به معجم الرثاء من الفاظ وتعابير لا تخفف من حرجي ، لان التكرار وطول الاستعمال افقدها اصالتها وقوتها، فصارت تدور على اللسان ولا تعبر عما في الانسان وعما يجب ان يقال في انسان عظمت انسانيته وتجاوزت ما للغة التقليدية من طاقات، لن تنفعني اذن خطب التأبين ولا مراثي الاقدمين والمعاصرين فهي ليست مني.. ولعلي لا ابالغ اذا قلت انها بعيدة، بعيدة جدا عما احس به نحو رجل مات ولكن ما ازال الشعر انه حي، لان حياته لايمكن ان يجهز عليها قبر صغير، قبر عاجز عن ان يحرم الاحياء من فضل الخالدين، في تأبينك ايها الميت الحي، ايها البصير الخالد، لن تفيدني سوى نفسي وما يضطر فيها من مشاعر، وذاكرتي وما حفظت وما احفظ فيها من صور وفاكار، وهذه المشاعر والصور وأفكار اكثر ما احتاج اليه في موقف كهذا.

ها أنذا أتخيله وهو يسير بخطاه السريعة يقوده جاسم العبودي مساعده آنذاك، ورأسه مرفوع وانفه شامخ ، ولكن من تواضع ودعة يوحي بها وجه لاتفارقه البسمة حتى اذا اكتأب، وها انا امتثله امامي وقد استقر على منصة التدريس، وطلب من جاسم قراءة الاسماء للتفتيش وضبط الحضور والغياب. وعلى توالي الايام عرفنا تلك الجلسة على انسان كان يعطي لانه لايعرف غير العطاء، لقد اعطى لوطنه من ثورة العشرين اقصى ما يمكن ان يمنحه رجل فقد نعمة البصر، فاعطى الثورة اكثر ما اعطاها المبصرون ، ولم يأخذ عشر معشار ما اعطاه، لانه لم يطلب ، ولم يعتد على الطلب ، كان كريما مع غيره، كريما مع نفسه، بل ان أجلى وأوضح ما فيه ، هذه الكرامة والعزة، وكان ابرز ما في هذه الشخصية انها طموح، قابلة للتطور والتجديد ، وقد بان هذا حينما عاد البصير رجلا اخر من فرنسا. عاد وهو يحمل فكرا وعلما جديدا ويرتدي زيا اخر، ولكن نفسه الصافية ، وخلقه الطيب، وسلوكه مع الناس ظل كما كان.. لم يتغير.. ويخطئ من يظن ان شعلته الوطنية قد ضعفت، لقد انقلب خطيب ثورة العشرين الى استاذ وموجه واديب يربي ويغذي ابناء واحفاد ثورة التحرر والاستقلال، وخرج من دار المعلمين العالية اجيالا بعد اجيال تعلمت منه الكثير ولم يكسب منها ولا من غيرها الا القليل، واكبر الظن ان ما اصاب العراقيين بعد ذلك من نكسات قد ترك في نفسه بعض الجروح واشعرها ببعض الخيبة ، لقد كان البصير نموذجا يطلب النماذج والمثل العليا فاذا به يصطدم بمساوئ لم يتوقعها، وكان اشدها على نفسه تكالب المتكالبين على المنافع والمكاسب، وكثير من شعره ونثره يعبر عن هذه النفثات والخيبات وبعض المساوئ التي كان يشكو منها المجتمع العراقي والعربي في العشرينيات والثلاثينيات.

لقد تحولت ثورة البصير الاولى الى شحنة جديدة عرف كيف ينظم موجاتها ويترجمها الى عمل مثمر في خدمته التعليمية الطويلة، وفي نشاطه الادبي، وفي غزارة عطائه في هذا الميدان.

ولم يكن يعطي العلم فقط بل كان يمنح معه المحبة والصداقة والحنان.

ولم يكن يمنح الحنان والصداقة والحب فقط بل كان يعلم الخلق الكريم فالطيبة، والوداعة ، ومساعدة الاخرين، وتجنب الاساءة اليهم، واكراه النفس على العمل باخلاص وبجد، والحرص على عدم اضاعة الوقت فيما لاينفع، كان كل هذا من سمات البصير ومعالم شخصيته المحبوبة، ولم يقتصر تجدد البصير على ثقافته القديمة، ويتأثر بها الا انه استطاع ان يجددها ويعطيها شكلا ومضموناً. وقد تجلى هذا في ابحاثه الادبية، فقد وضح فيها تاثره بمناهج البحث الحديث وبان في مواضع كثيرة وفي آراء متعددة بثها هنا وهناك.. لا جزافا.. بل بعد دراسة ونظر ولجوء واضح الى البرهان، وكتاباه: بعث الشعر الجاهلي، وفي الادب العباسي، حافلين بما افاده البصير من دراسة في فرنسا وما افاد منه طلابه وقراؤه.

رحمك الله يا استاذنا الخالد وثق اننا لن ننساك وهل ينسى من له ادب خالد وشخصية لاتنسى؟

مجلة الف باء كانون الاول ١٩٧٤

ها أنذا أتخيله وهو يسير بخطاه السريعة يقوده جاسم العبودي مساعده آنذاك، ورأسه مرفوع وانفه شامخ ، ولكن من تواضع ودعة يوحي بها وجه لاتفارقه البسمة حتى اذا اكتأب، وها انا امتثله امامي وقد استقر على منصة التدريس، وطلب من جاسم قراءة الاسماء للتفتيش وضبط الحضور والغياب.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

ذكريات ومواقف

الدكتور جلال الخياط

-كيف يمكن ان يقهر الانسان الموت ويبقي له ذكراً على هذه الارض اكثر من ان يكون شاعر وخطيب أول ثورة حقيقية في بلاده، بعد سنوات طويلة من الذل والطغيان، لاينحسر عن نتائجها ولا يضطرب في مواقفه من معطياته الا ليستزيد من العلم ومن المعرفة ، فيشد الرحال الى عوالم بعيدة، ويرجع الى وطنه الذي اتسمت به للامام خطاه، فيتخذ له مكاناً مرموقاً في ميدان البحث والتأليف والتدريس ، ويمر أمامه جيل وتتعاقب اجيال ويحظى باحترام ويتصف بعناد في حق يراه، لايكترث بنتائج اصراره على المطالبة به، ومثابرة من رجل حاول ان يعوض عن بصره ببصاصرته ، فأثار التقدير والاعجاب ، وكبرياء في شخصية لم تعرف اطلاقاً مخاتلة وميوعة افراد مالوا مع رياح الاربعينيات والخمسينيات حتى كادت ظهورهم تنقصم فيما بعد، وبقي البصير صامداً، وظل البصير شامخاً، ومات..

-ولكن ذكراه اليوم تحيا في دموع المحبين، وفي قلوب الطلبة، وفي صفحات الكتب ، وفي آراء الباحثين ، وفي نتائج أدبية قيمة تواصل اليها، حددت من انطلاقها وشيوعها، قبل سنوات عديدة، سلبية اناس لم يعرفوا في حياتهم سوى الحقد ، ولم يتمتعوا الا بموهبة الاحاديث السائبة في مجالس الادب الزائف، ومنذ ان مارس الفقيد التدريس في دار المعلمين العالية، كانت تلك السلبية تحاول دائبة التقليل من نشاطه، وما اهتم ، ولم ييأس ومضى في طريقه...

-لم اسعد في حياتي بمقابلة شخص كالبصير يحفظ التراث الادبي العربي ، حفظاً متقناً، نصا وخبرا ، وله فيه رأي ومواقف دقيقة سريعة، مكثفة ورؤيا واضحة كاشفة..

-وحين انضممت الى قسم اللغة العربية طالباً، والفقيد فيه استاذ، وقبل ان اصل السنة التي يدرس فيها اسمع عنه الكثير من الزملاء ، وأجد فيما بعد قسماً مما سمعت منصفا حقيقياً، وآخر لايمكن ان يصدر الا من متضرري "الدرجات" ومن ذلك أنني لن احصل منه، مهما بذلت ، على تقدير وتشجيع ، ويكذب فألهم، وحدث ان عطلني عن الدراسة أمر شغلني عن مراجعة كتابه، وكانت اجابتي ، في ضوء آرائه، رديئة وأيقنت ان الرسوب هو النتيجة الحتمية، ولكنها جاءت مدهشة ، خلاف ما توقعت، فسألت سكرتيره وعلمت انه حين منحني الدرجة قال انها ليست للاجابة الامتحانية ولكن لصاحبها..

-ولم يكن بيني وبين الفقيد سوى علاقة طالب باستاذه، وأعلم عن طريق شخص أعرفه ان طالبا جديدا في كليتنا فقيرا بشكل لايصدق جاء الى بغداد سائرا على قدميه من مدينته ، ولم يقبل ، سهوا أو ظلما ، في القسم الداخلي وأن يومين مضيا، لم يذق فيهما طعاما، ويدفعني حماس عجيب الى البصير، وأفضي له بقصة ذلك الطالب، وهو بين محاضرتين يتمتع براحة دقائق محدودة، ويطلب مني ان ارافقه حتى باب العميد، ويخرج بعد وقت قصير جدا، ويشير الي ان المسألة قد انتهت، وفي المساء حين وجدت زميلنا الجديد يشاركنا حياتنا في القسم الداخلي انتابني احساس غريب، وجذل غامر، وبعد ايام جاء ذلك الزميل ليشكر الفقيد فقال له: لم افعل شيئاً سوى أنني صححت خطأً يقع عبئه علينا جميعا، ورفض الشكر والامتنان ، وبقيت الذكرى..

-ويمر عهد التلمذة، ولم نكن في ذلك الوقت ننظر الى كتب الفقيد الا من خلال اطار محدود من النفعية، يسمى امتحانا ودرجة

، فلم نعطها حقها، فهماً ودراسة موضوعية، وبعد سنوات كتبت بحثا واعتمدت فيه مصادر وظننت أنني توصلت الى نتائج جديدة، واعجبت بذلك ورضيت ، ثم وجدت قبل نشره، خلاصة لتلك النتائج في فصل من كتاب الفقيد"في الادب العباسي" ولم أكن انتبهت الى ذلك حين درست الكتاب، وادركت الى أي مدى قصرنا ، نحن الطلبة في فهم آرائه، وأي عماية جابهنا بها آثاره، تحت وطأة العيون الشاخصة الى درجة وامتحان وشهادة، ومزقت البحث الذي كتبته..

-خير هدية يمكن ان نقدمها للبصير في ذكراه:

×ان نجمع اشعاره كلها في ديوان جديد يليق به، ان لها قيمة تاريخية ترتبط ارتباطا وثيقا بواقع وطننا في مطالع القرن العشرين ، وقيمة أدبية ايضا، تفصح عن التيارات التي سادت الشعر العراقي الحديث في بدايات تطلعه نحو عوالم جديدة من الابداع والاصالة.

×ان نعيد طبع كتبه ودراساته بشكل جيد فقد حدد من انتشاره سوء الطبع والاخراج والتوزيع.

×ان يكتب احد طلبة قسم الدراسات العليا في كلية الاداب اطروحة يدرس بها الفقيد وآثاره ومواقفه الادبية والوطنية.

×ان نطلق اسمه على احدى قاعات كلية الاداب او مكتبة فيها أو جناح في مكتبة.

-كيف يمكن ان يقهر الانسان الموت الا بالعمل الجاد والذكرى العطرة الباقية؟

مجلة كلية الاداب العدد الثامن عشر ١٩٧٤

مع البصير

د. حسين علي محفوظ

اتيحت لي ملازمة الاستاذ المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير، والتتلمذ عليه في دار المعلمين العالية –ببغداد– ثلاث سنين، درست فيها تاريخ الادب العربي، وقد كانت امالية ومحاضراته ودروسه ابحاثاً اوسعها دراسة وتحقيقا وتنقيحا وتحريرا وتفهيما وفهما.

ثم سعدت بصحبته في بيته فترة كنت اساعده فيها في اعداد بعض فصول دراساته في الادب العباسي – لما فارقه مساعده الدائم – فكانت ايامي معه – التي خصني بها – دروساً عملية أكمل بها التدريس النظري.

كان رحمه الله يقرأ امهات المصادر، ويراجع الدواوين والرسائل، فكنت اقرأ عليه ما يدلني هو عليه ما يحتاج اليه من اخبار واشعار. ويخطر ببالي انه كان يتطلب احيانا ان اعيد عليه مرة بعد اخرى خبرا ما، فكان يصغي اليه، يقرأه معي، وربما سبقني.

اما الشعر فقد كان يروى كثيرا منه، ويسمعه وهو يحفظه ، وكأنه يريد ان يطالعه ويطلع عليه.

واتذكر الان انى –وقد كان يستهويني احيانا خبر استطرفه يكتفي هو بما يحتاج اليه منه، او شعر اعجب به لا تمس اليه حاجة البحث –فأذهل عنه، وأغفل عن اصل الموضوع.

لقد كان يعرف ذلك جيداً فيمهلني وينظرني، ثم يسألني بلطف.

وطالما استطلع رأيي امتحانا أو مؤانسة أو استراحة، وكان يحس احيانا ان في نفسي ميلا الى مخالفته. ولا اظن ان ذلك كان يضيره او يزعجه.

ولكنه كان يحاول –كما اتذكر – ان يدافع عن رأيه، فكنت استفيد – اذا حاججني – من آرائه وبراهينه وألته وحججه.

كنت ازوره "رحمه الله" فكانت مجالسته من أحاسن اوقاتي، واحاديثه من طرائف ما اسمع.

كان يسألني عن اشياء، ولكنه كان يملأ المجلس قصصاً وادباً وشعراً ومفاكهة وظرفاً.

سألته ذات مساء –في اللقاء الذي سبق زيارتي الاخيرة له قبل وفاته ببرهة – عن ترجمته. فحدثني باشياء من سيرته ونسبه وتاريخ حياته، وماضي اسرته، وروى كثيراً من الاخبار والحوادث والشعر، حفظت شيئاً منه، ودونت شيئاً، وفاتتني وغابت عني اشياء كثيرة. ولم احزن على شيء كحزني على ذلك الادب الغض، والعلم الجم.

ومما شرفني به اوراق في ترجمته كل الظن انه املاها –قبل طبع (السوانح) سنة ١٩٦٧– علاى بعض أهله أو خواصه او مساعديه ، ثم استكتبها، وقد أهدى الي نسخة منها، وهي ما كان يعتمده، ويجيب به، اذا سئل عن تاريخ حياته.

جريدة الجمهورية كانون الاول ١٩٧٤

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

البصير شاعراً وطنياً

د. عناد غزوان

استاذ الجيل..

سلام عليك من بركانك الذي أهديته
الى الثائرين من ابناء وطنك..الى
الذين كتبوا صك استقلال عراقنا
بدمائهم.. فكان "بركانك" بحممه
صوتا وطنيا ثائراً معبراً عن جهادك
المتواضع الشريف في سبيل العرب
عامة والعراقيين خاصة..
كنت مؤمناً الايمان كله ان دم الشهداء
يخلق الاستقلال، ويحقق الحرية..
ويثبت اقدام الحقيقة، ان التضحية
والفداء عنوان الثورة والاباء:
لايلبسن الشعب حلة مجده
حتى تطرز بالنجيع القاني

أبا النضال..
كنت ترى الحرية صمودا في وجه
المستعمرين، وصرخة أبية تعلن
حق الثائرين على الطامعين، وقربانا
للمبادئ الوطنية وشرف الكفاح:
الحر من لا يستكين لقاهر
فانهض بشعبك يا فتى قحطان
وادرأ بموتك عن بلادك موتها
ما للبلاد سواك من قربان
ولدتك تربتها وضمك جوها
وبها نطقت مميزاً بلسان
ما أنت من ابنائها ان لم تكن
عنها تذود بكل يوم طعان
أو لست في ديوان شعبك صفحة
فلتغد غرة ذلك الديوان
الروح والجثمان منه فحقه
ان يفتدى بالروح والجثمان

أبا النضال..
ان حبك وطنك مبدأ مقدس. وجدان
ينبض بالحركة..وقلب يخفق
بالحنان ويدعو الى العدالة..وعاطفة
تتألق فيها الحماسة رمزا رائعا من
رموز الوطنية والاخلاص.. وعقل
يدرك ابعاد العقيدة بوعي وثبات..
وروح مجاهدة تخلق العزم وتلتزم
بالحزم في الدفاع عن الوطن بكل
قيمه ومثله وحقه في الوجود
الانساني:
"وطني والحق يؤيده"
أصفيه الحب وأعضده
أهواك ولولا مبدعه
لجهرت بأني أعبده
مهد التشريع ومنبته
ومنار العلم وفرقده
ولسوف نهب لنصرته
فنحرره ونجدده
سنهز الشعب ونوقظه
ولدفع الظلم نوحده
ونحطم قيد مذلته
وبنشر العدل نقيده

ابا النضال...
كنت ثائراً صريحاً يعبر شعرك عن
الحقيقة بلا زيف او رياء لانك ابن
الثورة ورائد الحقيقة:
غضبنا فقمنا ثائرين لغاية
تهون المنافي دونها والمشانق
ورددت الاجواء قصف زئيرنا
فردت عليه بالدوي البنادق
فهل تنطق الزوراء وهي اسيرة
تسكت عما تبتغيه المناطق
فيتوهج وجدانك فكراخلاقا، ويظهر
احساسك "بلبيك ايها الوطن". صور
صادقة من صور الوطنية والتضحية
، وموقفا شريفا يرتبط بقضية
وصوتا يعبر عن ثورة...فصارت
قصيدتك هذه مثلا رائعا لموقف،
وصفحة مشرفة من صفحات كفاحك
ووطنيتك:
بك همت ، بل بالموت دونك في الوغى
روحي فداك متى اكون فداكا
لك قد خلقت وفيك منك وكل ذا
يقضي عليّ بأنني أرعاكا
ثق أنني بهواك باذل مهجتي
ما كان أرخصها وما أغلاكا
واحمل وساما فوق صدرك من دمي
ما كان احلاه اذا حلاكا
ويروقني ان الجراح تضاحكت
في جسمي الدامي وان أبكاكا
ولئن مزجت دمي بدمعك سائلا
فلقد وفيت وما عدمت وفاكا
ماذا عليّ وما خسرت مكانة
أني أموت لكي اصون حماكا

أبا النضال...
ما أروع ايمانك بالوطن، وما أشد
تعلقك بتربته الغالية، لا استقلال بلا
تضحية ولا وطنية بلا فداء، ولا مبدأ
بلا شرف وايمان:
يا تربة الوطن المحبوب هاك دمي
فسؤدد الشعب ان يسقي ثراه دم

ابا النضال...
كنت مع الحق في ثورتك، مع
الايمان في سجنك، مع الوطن في
منفاك وغربتك، مع الحرية في
سلوكك ومنطقك، مع شرف المبدأ
في سيرتك وتراثك، مع الانسان في
ألمك واحساسك ، مع العدالة في قولك
وفعلك..
لم تشك من الشكوى، ولم تتوجع من
الأسى، ولم تساوم بحق الوطنية..
فأنت ثورة العشرين وبركانها،
وأنت صوتها الهدار وحرفها الساطع
الثائر.
فسلام عليك سفرا خالدا من اسفار
نضالها، وحقيقة ساطعة من حقائق
كفاحها...
رحمك الله –ابا الجيل– في ذكراك...
فستبقى في وجداننا حقيقة...وفي
نضالنا قدوة..

مجلة الاقلام اذار ١٩٧٥

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

محمد مهدي البصير.. شاعر الثورة الكبرى

أسس أحزاباً عدة وأطلق الكلمات دفاعاً عن العراق

حميد المطبعي

من البصير، وهل تميز بشيء يختلف عن جيله؟

– شاعر ثائر، خطيب، مؤرخ، باحث، ناقد، استاذ اجيال عدة، ولد في الحلة «١٨٩٥– ١٩٧٤» ويعد اول عراقي دعا إلى ان تكون الثورة على المحتل البريطاني ثورة مسلحة وليست منابر واهازيج وخطباً في الجوامع، بل هو من خمس دعاة اشعلوا ثورة العشرين، ولقبه الناس بلقب «ميرابو الثورة» تشبيها بخطيب الثورة الفرنسية بعد إعلان البصير موعداً للثورة العراقية علي منابر بغداد...!

وهل له القاب اخرى...؟

– له لقب «شاعر ثورة العشرين» بامتياز، لأنه الشاعر الوحيد الذي مهد للثورة «قبل وبعد».. وكانت قصائده تفعل في نفوس العراقيين فعل السحر، فتثير فيها عواطف النخوة والغيرة علي وطن محتل، وقد حفظت قصيدته: «لبيك أيها الوطن» شفاها في كل اندية ومحافل بغداد وطارت الى المدن جميعها تردد في التظاهرات واجتماعات التنديد، يقول فيها:

إن ضاق ياوطني عليَّ فضاكا
فلتتسع بي للأمام خطاكا
أجري ثراك دمي فان انا خنته
فلينبذني إن ثويت ثراكا
بك همت بل بالموت دونك في الوغي
روحي فداك متى أكون فداكا؟

وهي قصيدة طويلة عبرّت عن وحدة البندقية في الشعب، ودعت الى جهاد الوحدة الوطنية لطرد المحتل وتحرير العراق، وكان صوت الشعر يؤمئذ اقوى من صوت البندقية او بما يعادل فتوي جهادية.. قال محمد الصدر وهو من قادة ثورة العشرين : إن البصير نبوءة في هذه القصيدة...«..!

هل كلمة «البصير» لقب آخر...؟

– لقب عرفي، لأنه فقد بصره وهو في الخامسة من عمره لإصابته بالجدري، ولما شاع اسمه في الخامسة عشرة من عمره شاعراً واديباً ومجلسياً سماه الادباء: البصير على نظرية تسمية الشيء بضده، والناس كانت تسميه في محلته: الاعمى، جاء الاعمي وذهب الاعمي، حتى استبدل لقب بلقب يليق ومكانته الادبية في مجالس الحلة الادبية..!

إذا كنت تحسبه الشاعر الاول والخطيب الاول في ثورة العشرين، فهل يعني انه اصبح وثيقة يركن إليها .. ومتى يصبح الشخص المهم وثيقة تاريخية...؟

– نعم ..هو وثيقة وأي شبيه له وثيقة كاملة الابعاد.. لكونه : شاهدا علي الحدث، تتجلى في شخصيته الصدقية والامانة والاتزان والبعد عن النيات المختلطة والفدائية الغريزية والحسية العالية بتاريخ متوازن، وكل ذلك تجسد في كتابه «تاريخ القضية العراقية» – وهو جزآن من ١٩٢٣–١٩٢٤ وفيه قدم البصير نفسه ليس الشاهد على عيانية ثورة العشرين، بل كان المساهم في صنع اولياتها سواء كان في السجن ام في الاقامة الجبرية في جزيرة هنجام، كان يقول لمحمد الصدر «قائد جبهة بغداد وديالي»: «سيدنا: الخطب والتظاهرات لا تصنع ثورة بل السلاح يفل السلاح.. هيا الى السلاح» وفضلا عن كتابه المشار اليه ثمة أية قصيدة كتبها في مخاض الثورة ترى تاريخا مرمزاً يشير الي واقعة ما من وقائع الثورة العراقية الكبري»، وأي مؤرخ إن اراد ان يبحث في أمر من امور تلك الثورة التحررية فلا بد ان يأخذ البصير مصدراً رئيسا من مصادرها العلمية، او وثيقة مزكاة او شاهداً وقع عليه الاجماع من المذاهب كافة والمناهج كافة وتيارات الثورة عموماً...!

هو من أي الاسر..؟

– أسرته نزحت من اطراف كربلاء في حدود القرن الثامن عشر الى مدينة الحلة، وهي تنتمي الى بني كلاب من عرب الجزيرة العربية، فهو محمد مهدي بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الحسين بن شهاب الدين بن عبيد بن احمد بن حسن الكلابي، مما يعني ان «كلاب» هو رأس شجرتهم النسبية ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان من عدنان، واول جد له ظهر في الحلة هو «شهاب الدين» الذي احترف المنبر الحسيني «أي احترف قراءة مأساة الحسين بن علي عليهما السلام من على المنبر» وحيث شاع اسم شهاب في ارجاء الحلة سمّي بيته «بيت اشهيب» من باب الاختصار والتحبب، وورث ابناؤه خطابة المنبر الحسيني، وكان محمد مهدي البصير ابرع ذراري اسرته في إجادة المنبر لغة وصوتا وحزنا وحنجرة مرتلة وهو لما يزل في الثانية عشرة من عمره، إذ كان يقرأ «مقدمة المأساة» قبل ان يقتعد والده الشيخ محمد، فاذا تعذر على والده المجيء، أكمل البصير الموعظة والارشاد والسرد القصصي للمأساة الحسينية، حتى عرف عند الاهالي قاطبة وابتداء من عام ١٩١٥ ب«الروزخون» المجوّد المجتهد... وفي «الروزخونية» نبغت فيه الخطبة السياسية والشعر الثوري...!

هل ثمة مشاهد على نبوغه...؟

– كانت له القدرة على فصاحة الكلام وهو ابن الثانية عشرة، ويقول الشعر وهو بهذا العمر، ويحفظ للمتنبي ولأبي العلاء قصائد ويعيدها على رفاقه بربع ساعة، وكان يرتجل شعره بمتانة السبك، واذا طلب منه في مجلس أعاد قراءة القصيدة من اواخرها من شعره او من غيره، ذاكرة مدهشة وحافظة تثير العجب، اما اذا قرأ شاعر امامه قصيدة أعاد البصير قراءتها في اللحظة ذاتها.. وإذا تسني لنا قراءة كتابه «سوانح» وهو جزآن ١٩٧٦ نجد البصير يرد على كل متشكك بقدرات نبوغه المبكر...!

هل له دور آخر في ثورة العشرين غير الشعر والخطابة..؟

١– كان من مؤسسي «حزب حرس الاستقلال ١٩١٩» الذي مهد لثورة العشرين، ورأس هو فرع الحزب في الحلة، ومن اوائل المؤسسين: محمد الصدر وعلي البازركان وباقر الشبيبي، والمستشار الاكبر فيه جعفر ابو التمن.

٢– كان عضواً رئيساً في تأسيس «الحزب الوطني ١٩٢٢» بزعامة جعفر ابي التمن، وأسس البصير فرعاً للحزب في الحلة.

٣– مثل العراقيين لعرض مطالبهم أمام الملك فيصل الاول بعد تتويجه بيوم واحد وخطب ثائراً: «نقبل بك.. علي أن .. ثم نقبل بك .. بعد أن..«

وكان الحاكم البريطاني يستمع بتوجع، بينما البصير أخذ يصعد من نبرته، وما ان خرج البصير من القصر حتي أصدر الحاكم البريطاني امراً فورياً باعتقاله ووضع في سجن إنفرادي كتب فيه البصير اروع قصائده الثورية «البرلمان – اوديوانة».

٤– كان منذ ١٩٢١–١٩٣٠ يكتب مقالة هنا وينشئ إفتتاحية هنا. ويحاضر في قاعة جامعة «أهل البيت» ويرسم في كل ما كتب صورة مثالية للأديب الملتزم، بلا مناورة او تدليس بل اعطى صورة عراقية على «الانموذج السقراطي» في تحريك السواكن وقلب المعادلات الخاطئة... وكان في ادواره: ينبوع ألم وطني..!

ما أبعاد ثقافة البصير..؟

– درس وامتزج في ثقافتين:

١– الثقافة القديمة، وثقف على اركان اسرته وعلى اركان الاسرة القزوينية، وكان القزاونة اسرة علم وادب ومجالس ادب اكتشفوا في البصير «وهم الذين سموه البصير» مواهب في الشعر فرعوا مواهبه في النحو والبيان وقراءة المطولات ثم اعطوه دروساً في الفقه والتفسير وشرح الحديث، وهو البصير كان وفياً لهم، فكتب عن رجالاتهم الشيء الكثير في كتبه وفي «سوانح» خاصة...!

٢– الثقافة الحديثة، فبعد ان طلّق الحزبية للمراوغة التي ظهرت فيها، قرر اكمال الدراسة العليا، فرحل ببعثة من الاوقاف الى القاهرة لدراسة اللغة الفرنسية تمهيدا لدخوله الجامعة الفرنسية فمن عام ١٩٣١–١٩٣٧ درس الادب الفرنسي وشعر الشاعر «كورني» فحصل على الدبلوم والدكتوراه من جامعة «مونبليه» بدرجة الشرف الاولي.. وعاد الى بلده ورأى في المطار رتلاً من اصدقائه يحيون به ابتسامة مدينته الحلة الفيحاء.

عمل استاذاً في الجامعة فما نظريته في التدريس..؟

– تخرج به عشرون رهطاً، وكل جيل فيه اربعة او خمسة ادباء، إذ كان لا يؤمن بحشو الادمغة او صيد الشهادة الجامعية إنما بنى نظريته المنهجية على زرع البذور الادبية واكتشاف البيئات الثقافية في أعماق التلاميذ، وأظن انه كان يخرّج مواهب «هي تلاميذه» ويضخ فيهم حب الرغبة الادبية او تأهيل الذات المعرفية في كل منهم..

من برز من تلاميذه علي صعيد الابداع..؟

– الدكتور علي الزبيدي والدكتور علي جواد الطاهر والدكتور عناد غزوان والدكتور صلاح خالص والدكتور جلال الخياط وهؤلاء عينة...!

أي الرجال اصدقاؤه..؟

– واحد فقط هو زعيم مدرسة الوطنية جعفر أبو التمن «ت– ١٩٤٦» إذ كان يردد قوله فيه : «كان هو هو لم يتغير ولم يتبدل ولم يعتره ضعف ولا وهن» مثالها..بعد أن وجد البصير أن اكثر اصدقائه في ثورة العشرين تغلبت عليهم أغراءات الانكليز او اغراءات فيصل الاول.. إلا (جعفر ابو التمن) الذي جمعته بالبصير راية الجهاد وقاعة السجن وساحة المنفي..!

وهل ثمة اخطاء في البصير..؟

١– عصبيته، تخرجه أحيانا عن كونه رائدا ومبشرا، وادلة كثيرة على ذلك منها تهجمه على طه حسين في مقالات عدة، ومثل طه حسين لايهاجم بل يُنقد ويستفتى ويستشار..

٢– إهماله في كتابة مذكراته..إذ إكتفى بكتابة ورقة ونصف بعنوان «من أنا» وكان عليه وعلى اي رائد ان لا يترك شخصيته نهباً لتفسيرات الآخرين، فبوجود مذكراته يقضي على التأويل...!

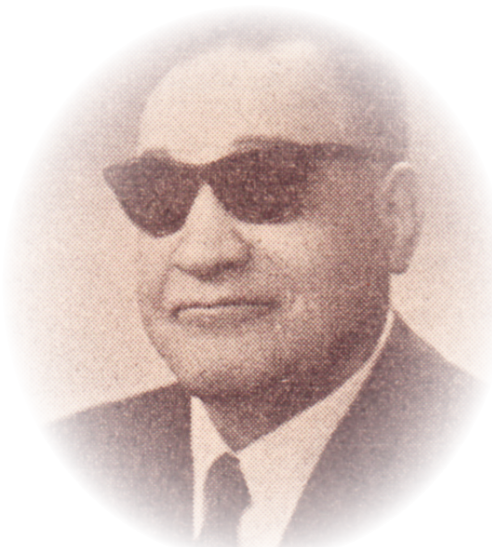

كان من مؤسسي «حزب حرس الاستقلال ١٩١٩» الذي مهد لثورة العشرين، ورأس هو فرع الحزب في الحلة، ومن اوائل المؤسسين: محمد الصدر وعلي البازركان وباقر الشبيبي، والمستشار الاكبر فيه جعفر ابو التمن.

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

ذكرياتي عن طريق العمر

سامي خونده

كان المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير بالنسبة لي صديق العمر وزميل الجهاد والوداد طوال نصف قرن من الزمان، لذلك كان فقده فجيعة أليمة اصابتني ليس من السهل وصفها بالكلمات، ولقد اسفت أنني لم تتح لي المشاركة في تابينه يوم أربعينه وبالنظر لرغبة كثيرين من الاصدقاء والعارفين بعلاقتي الوثيقة بالمرحوم، فإني اسجل فيما يلي بعض ذكرياتي الخاصة المرتبطة به دون التطرق الى مقامه الادبي الباذخ فهذا ما يعرفه الجميع ويقدرونه حق قدره وقد تطرق اليه حضرات السادة الذين أبنوه.

×ذكرياتي عن الفقيد كثيرة تبدأ من شهر نيسان عام ١٩٢٠، كما اتذكر –أي حين قدومه من الحلة الفيحاء مسقط رأسه الى بغداد، ففي ذلك الاوان تعرفت عليه ، لقد وجد فيه رجال الثورة العراقية ثورة العشرين الدامية عنصرا وطنيا وأهلية لاثارة عواطف الناس وتوعيتهم وتعريفهم بالثورة وبواجبهم تجاهها بما كان يلقيه من القصائد والمواعظ والخطب من على منابر الحسينيات وفي الجوامع وخاصة جامع الحيدرخانة وفي الكاظمية وفي المناسبات الدينية وفي الموالد الشريفة وكان الناس يحملونه احيانا على الاكتاف حتى منبر الخطابة تقديرا له واعجابا به.

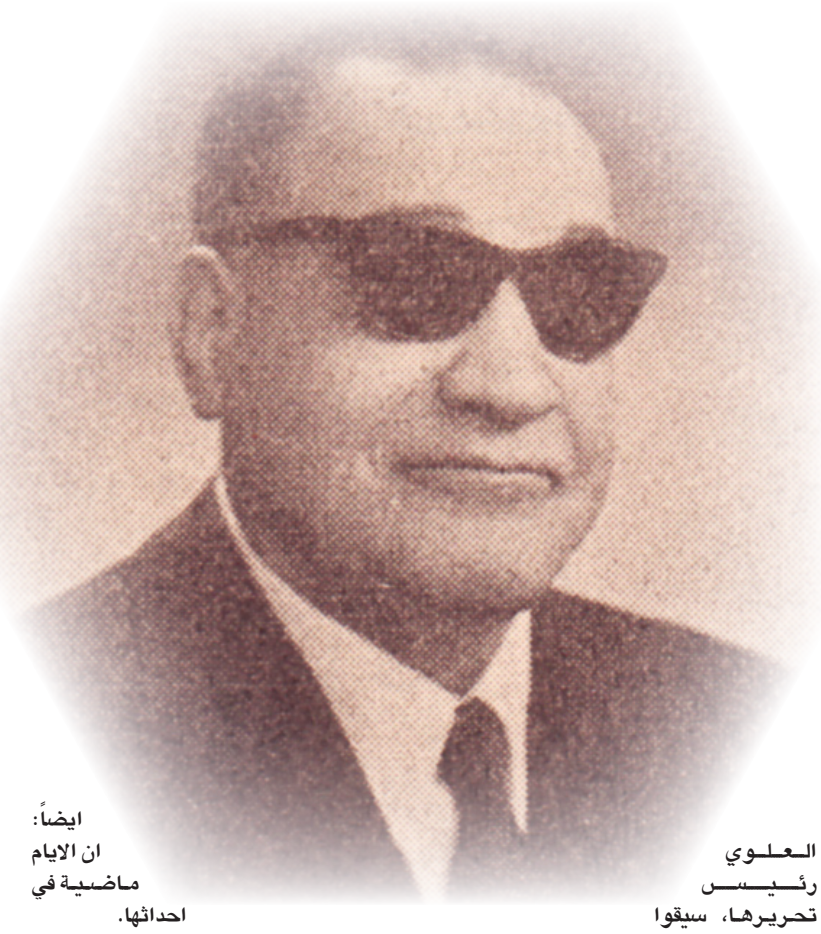

×لقد تعرفت على صديقي الفقيد للمرة الاولى في دار المرحوم الحاج عبد الغني كبة (الكبير) في اجتماعاتنا التي كان معظمها يعقد في هذه الدار الواقعة في محلة صبابيغ الآل فأنس بي الفقيد وأنست به وتوثقت بيننا العلاقة من ثمة.

×لما اندلعت الثورة العراقية في شهر حزيران عام ١٩٢٠ كان المرحوم البصير يلقي في جامع الحيدر خانة قصيدته الشهيرة التي أولها:

ان ضاق يا وطني علي فضاكا
فالتتسع بي للامام خطاكا

وكنت حاضرا معه في الجامع وبعد القائها وعندما بدأ الناس يخرجون من الجامع وصلت ثلاث سيارات مسلحة فاضطرب الجمهور لها وانزعجوا بعد سماعهم الاطلاقات النارية التي كان من أثرها ان قتل المرحوم (الاخرس) في باب الاغا اما الشاعر فقد استمر في الانشاد ولم ينقطع عنه رغم الاضطراب الذي حصل وقال مخاطبا الجمهور بصوته الجهوري ماذا جرى لكم؟

دعونا نموت في سبيل الوطن. وكرر انشاد هذا البيت:

ان يندمج جسدي بتربك بالياً
فلقد وفيت وما عدمت وفاكا

أو يقتضب نفسي فما لي منة
أو لم يمن به علي هواكا

وقال يخاطب الوطن من قصيدته تلك ويكرر:

واحمل وساماً فوق صدرك من دمي
ما كان احلاه اذا حلاكا

ثم خرجت من الجامع مع بعض الرفاق واذكر منهم السيد سلمان الشيخ داود (المحامي اخيرا) والمرحوم حسين علوان الدوري المدفعي (بطل اغراق الباخرة فهرنهايت في شط الكوفة) واشتركنا في رفع جثمان الشهيد مع الجمهور حيث شيع عصر ذلك اليوم الى مثواه الاخير.

×بسبب ما نشر في جريدة الاستقلال وما أذيع على منابر الجوامع والمساجد من الخطب والمناقب النبوية والقصائد الحماسية سيق المرحوم البصير والمرحوم عبد الغفور البدري صاحب جريدة الاستقلال والمرحوم السيد قاسم العلوي رئيس تحريرها، سيقوا الى محكمة الجزاء التي كان يرأسها الحاكم البريطاني (جي الكساندر) فحكمت عليهم: بالسجن تسعة اشهر على المرحوم البصير وستة اشهر على العلوي وسنة واحدة على البدري، وتم ايداعهم في سجن القلعة (وزارة الدفاع الحالية) وقد استطاع بعضنا زيارتهم فقمت انا والسيد انور النقشلي والمرحوم سامي النقشلي وقاسم عبد العال فوجدنا غيرنا قد سبقنا الى هذه الزيارة كان من بينهم صديقنا المرحوم علي محمود الشيخ علي وابراهيم فهيم الخالدي وشهدنا البدري والبصير مكبلين بالحديد ولكنهما استقبلانا بالضحك والبشاشة وقال لنا البصير: هذا الحديد لايشفي غليل من سبب تكبلنا به، وقال ايضاً: ان الايام ماضية في احداثها.

×وفي اليوم الرابع أو الخامس من سجنهما أمرت وزارة الداخلية برفع الحديد عن السجينين الوطنيين بعد ان زارهما في السجن وزير الداخلية (السيد طالب النقيب) ورآهما مكبلين بالحديد حيث ان الغرض من ذلك قد تم –كما بدا لنا – وهو محاولة اخافتنا نحن الذين زرناهما وهما في تلك الحالة المؤسفة وانتشار خبرهما بين الجمهور من قبل زوارهما.

بعد مضي خمسة اشهر تقريبا على سجن المرحوم البصير وزميليه كانت الثورة المسلحة قد انتهت وقامت وزارة موقتة في البلاد وتقرر ان يكون للعراق حكومة دستورية ملكية وان يكون الامير فيصل ملكا على البلاد.

وفي ذلك الحين وبعد وصول الامير فيصل الى بغداد صدرت أوامر وزارة الداخلية باعفاء السجناء الثلاثة ما تبقى من مدة محكومياتهم وطلب الامير مقابلتهم ولكن هذه المقابلة لم تتم..

في يوم من الايام (أتذكر تاريخه) كنت ذاهبا مع المرحوم البصير الى دار المرحوم السيد محمد الصدر (الدار القديمة الواقعة في الكاظمية) فوجدنا في طريقنا (المس بيل) المعروفة (بالخاتون) السكرتيرة الشرقية لدائرة المندوب السامي البريطاني مع ثلاثة من الضباط البريطانيين واقفين في باب الصحن الشريف (باب القبلة) تحدثهم عما فيه من الريازة، فلما رأتنا استوقفتنا وقالت لنا اين ذاهبان الان؟ هل تريدان ان تلقيا (بمبة) هنا أي قنبلة، فأسرعنا بالابتعاد عنها ونحن نضحك بوجهها عند ذاك قال لي البصير: أتدري لماذا ارادت ان تطيل الحديث معنا وتستوقفنا اكبر مدة ممكنة؟ انها تريد ان تتظاهر امام الجمهور بأننا من اصحابها ومن جواسيسها، وقد نقلنا هذا الى المرحوم الصدر بعد ان وصلنا الى داره فضحك وايدنا بما ذهبنا اليه.

×اذكر انني بعد العودة من منفانا في جزيرة هنجام وفي داري القديمة الواقعة في محلة جديد حسن باشا – وكان المرحوم البصير يومذاك معي في الدار –زارنا احد ادعياء العلم والمعرفة والادب وكان يشتغل في التعليم بدار المعلمين الابتدائية، وكان باحاديثه يخبط خبط عشواء ويخلط العلم بالجهل وعندما خرج رجاني المرحوم ان أنشر له في جريدة الاستقلال التي كنت مشتركا في تحريرها الابيات التالية التي ارتجلها على الفور قائلاً هل هذه هي الثقافة الحديثة وكان متأثراً، ونشرت الابيات (في جريدة الاستقلال) اليوم التالي كما اراد وهي:

رأيت سجين المحبسين بمجلس
تولت لنا اعداده سنة الكرى

فقلت له ان العقول تغيرت
واكبر فيك الشرق ما كان أنكرا فقال
ولكني على العهد ثابت

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

ورأيي في ابنائه ما تغيرا

×كانت السلطة الحكومية البريطانية قد ألقت القبض علينا أنا والبصير والجرجفجي يوم الثلاثاء ٢٤ اب سنة ١٩٢٢ (عندما كنت اصدر جريدة الرافدين) أي في اليوم الذي تلا يوم جلوس الملك فيصل على عرش العراق وذلك بعد ان ألقى المرحوم البصير خطبة باسم الحزب الوطني العراقي والقى المرحوم محمد حسن كبه خطبة باسم حزب النهضة وذلك في البلاط الملكي كما هو مسجل في التاريخ وقد ارسلتنا السلطة الى معسكر القوة الجوية البريطانية في الهنيدي (معسكر الرشيد الحالي) وبقي كل منا في السجن العسكري الانفرادي مدة ثلاثة ايام ، ثم ارسلنا الى السجن العسكري في " ماركيل" بالبصرة حيث وجدنا هناك كلا من المرحومين جعفر ابو التمن وحمدي الباجه جي وعبد الرسول كبه ثم لحق بنا أو الحق بنا الشيخ حبيب الخيزران رئيس قبائل العزة في لواء ديالى وبقينا في ذلك المعسكر مدة تقارب الشهر ثم ساقتنا السلطة الى جزيرة هنجام وفي كل المدة التي قضيناها من حين القبض علينا الى عودتنا الى بغداد كان المرحوم البصير أكثرنا ثباتاً وهدوءاً وفعالية وليس في استطاعتي ان اذكر كل الحوادث والذكريات التي تدل على ذلك ولكنني اذكر منها ما يلي:

١-كان السجن العسكري في ماركيل (البصرة) خاصا بالسجناء من الجنود الهنود وغيرهم ممن ليسوا بريطانيين، وفيه غرفتان مخصصتان لمن يسجن بالاشغال الشاقة كان في احداهما سجين هندي يأتي اليه صباح كل يوم عريف انكليزي ويخرجه من الغرفة ويضربه أمامنا ضرباً مبرحاً وبعد اجراء هذه المهمة القاسية يمر علينا العريف وهو يبتسم في وجوهنا وفي احد الايام قال للبصير وانا اترجم اقوال كل منهما للاخر: انت تسمع الضرب ولكنك لو كنت ترى لتأثرت اكثر فقال البصير.. أنا لو كنت أرى لسررت أكثر لأن ذلك يعني سرعة تخلص الوطن منكم فضحكنا كلنا أما العريف فقد شتمنا وذهب.

٢-في الباخرة التي حملتنا الى جزيرة (هنجام) لم نكن نعلم الجهة التي تقصدها الى ان وصلت اليها وهي اباخرة (آررا اوندا) بينما كنت انا والمرحوم البصير نسير على ظهر الباخرة وهي على مقربة من ميناء (بندر بوشهر) الايراني اقبل علينا شيخ هندي وقور وهو بلباس وطني وعلى وجهه سيماء الوجاهة وبعد ان سلم علينا سألنا عن هويتنا قالت له: اننا منفيون من بلدنا العراق الى جهة لانعلمها، وها هم الجنود الانكليز مع عريفهم يقومون بحراستنا حتى ونحن على ظهر الباخرة فقال وقد اشار الى البصير ومن يكون هذا فقلت له: أنه احد خطباء الثورة العراقية.

عند ذاك سأله ألست متضايقاً من حالتك هذه وأنت بصير؟ فأجابه رحمه الله: اني فخور بأن أترك العراق الذي يحكمه البريطانيون، ذلك أولى من ان أبقى في جوه، وانني اتمنى ان لا اعود حتى لا أرى وجه الانكليز هناك فتأثر الرجل كثيراً بهذه العاطفة الوطنية.

٣-في جزيرة هنجام القاحلة التي لم يسكنها انسان سوانا كنا نقضي أوقاتنا في الاحاديث وتلاوة ما نحفظه من الاشعار ورواية الاخبار الماضية ولم يسمح لنا بالكتب ولا بالورق والاقلام الا بما يكفي لكتابة الرسائل الى اسرنا بمحضر من المكلف بحراستنا وهو بريطاني (موظف اللاسلكي في الجزيرة).

كانت تحرسنا في الجزيرة قطعة هندية من الجيش البريطاني مكونة من ثمانية جنود وعريف واحد وضابط هندي اسمه كما اتذكر (يمسنك) برتبة (جمدار) أي ملازم وقد استبدل اخيرا بضابط اخر هندي برتبة (سريدار) أي ملازم اول وكان (جمدار) ذلك يتصل بنا احيانا بعطف دون ان يشعر المسؤول عنا البريطاني ويطلعنا على ما يسمع من الانباء وفي مساء

جرت العادة في منفانا ان نخرج مساء كل يوم الى الساحل القاحل للتنزه جالسين بالقرب من مضخة الماء التي جلبوها لنا خصيصة لتحلية مياه البحر وجعلها صالحة للشرب وكان يحرسنا جنديان هنديان في هذه النزهة!! وفي احدى المرات عثرت على الشاطئ على قصاصة صغيرة من صحيفة انكليزية قرأت فيها نبأ سقوط وزارة (لويد جورج) البريطانية وتشكيل وزارة جديدة فيها فأخبرت رفاقي بذلك حالاً وفرحنا بالنبأ وعقدنا عند عودتنا الى محلنا جلسة خاصة للمداولة في أهمية الموضوع وقصاصة الصحيفة معنا

يوم الاثنين الموافق ٤ تشرين الاول عام ١٩٢١ كان الخادم الهندي قائماً بتنظيف غرفتنا بالاضافة الى قيامه بالتنظيف صباح كل يوم أي انه كان يقوم بالعمل هذا بشكل مضاعف مما جلب نظري فسألته ما الخبر فأجابني (كب صاحب آييكه) أي ان الصاحب (السيد) الكبير قادم صبيحة غد فلفت نظرنا الى امر سيقع، وبعد ذلك جاء الضابط الهندي مفتشاً عن الخادم وقال لي ان السير برسي كوكس سيزورنا في صبيحة يوم غد فأخبرت زملائي بذلك وعقدنا اجتماعاً سريعاً للتداول فيما سوف يكون موقفنا من هذه الزيارة المفاجئة وما سوف يتحدث به الزائر وما ينبغي ان نجيب عليه.

وفي صباح اليوم التالي شهدنا في عرض البحر باخرة بيضاء من النوع المسمى (بالنور) تتجه الى الجزيرة وعندما وصلت خرج منها برسي كوكس فاستقبله الجنود بالسلام الرسمي ثم اتجه نحونا وكنا جالسين بالحالة الاعتيادية كأننا لا نعلم بالزيارة وبعد تبادل التحيات أخذ يسألنا عن الصحة والاحوال ثم قال: (وهو القصد من الزيارة) ان حكومة العراق تطالب بعودتكم وسوف ننظر في ذلك قريبا ثم طلب من المرحومين أبي التمن والباجه جي ان يعلماه بالبلد الذي يختارانه في الهند للانتقال اليه لمدة قليلة من الزمن ثم يعودان الى العراق. اما زملاؤهما الاخرون فسوف يعودون الى بغداد بموافقة السلطات المختصة فرفض المرحوم ابو التمن والمرحوم الباجه جي الذهاب الى الهند وطلب نقلها الى مصر فلم يوافق المندوب السامي الزائر على ذلك حيث كانت آنئذ نهضة المرحوم سعد زغلول بادئة هناك أما المرحوم البصير فقال الى السير برسي كوكس اني شخصيا افضل البقاء هنا على العودة الى بغداد التي فقدت حريتها واستقلالها واني مصر على ذلك. فأجاب كوكس: لا، نحن نأمل ان تبدل رأيك فينا في المستقبل، وسألنا عن مواعيد وصول البواخر الى الجزيرة (وان كان يعرف هذا ولكنه كان يريد بالسؤال الاشارة الى قرب عودتنا الى بغداد) فأجبناه بالحالة.

٤-جرت العادة في منفانا ان نخرج مساء كل يوم الى الساحل القاحل للتنزه جالسين بالقرب من مضخة الماء التي جلبوها لنا خصيصة لتحلية مياه البحر وجعلها صالحة للشرب وكان يحرسنا جنديان هنديان في هذه النزهة!! وفي احدى المرات عثرت على الشاطئ على قصاصة صغيرة من صحيفة انكليزية قرأت فيها نبأ سقوط وزارة (لويد جورج) البريطانية وتشكيل وزارة جديدة فيها فأخبرت رفاقي بذلك حالاً وفرحنا بالنبأ وعقدنا عند عودتنا الى محلنا جلسة خاصة للمداولة في أهمية الموضوع وقصاصة الصحيفة معنا فقال كل منا ما ارتأى واتفق رأينا جميعا على انهم كلمة امة واحدة ومن معدن واحد ولاتغيير في سياسة القوم ولاتخفيف من تعذيب الاسرى وزاد البصير: ولا المسجونين والمنفيين وكان قد كرر ضرورة تحمل كل أذى منهم سواء ذهب هذا او جاء ذاك وكان المرحوم أصلبنا عوداً في هذا الحديث الذي طال بنا كثيراً.

٥-في ٢٦ شباط عام ١٩٢٢ جاءنا القنصل البريطاني العام في (بندر عباس) ميناء ايراني وهذا الرجل المسؤول الرسمي عنا والمشرف على احوالنا ومعه اوراق التعهد يرجونا ان يوقع كل منا عليها مفردا ليرسلها الى دائرة المندوب الرسمي في بغداد حيث سوف يتم الافراج عنا بعد التوقيع عليها والتعهد –بقسم اليمين– اتباع سياسة ملك العراق وعدم الخروج عليها، فرفضنا جميعاً التوقيع على هذه الاوراق او قول التعهد اذ لم نر حاجة اليه وقال له البصير لا استطيع ان ألطخ هذا التعهد بابهامي وقد تمنيت قبل هذا ان اسم صدر وطني بدمي، وارجوك ان تكتب ما قلته لك الى مرجعك المختص، فرنا اليه القنصل متعجباً من صدور هذا الكلام من رجل بصير مبعد الى جزيرة قاحلة نائية وقال له اني سأكتب ذلك كما تشاء وعاد الى بندر عباس ومعه اوراق التعهد ليعيدها الى دائرة المندوب السامي البريطاني ويخبرها بالامر.

٦-وعندما تقررت عودتنا الى العراق أبقي من رفاقنا المرحومان أبو التمن والباجه جي في الجزيرة على أمل ان يسفرا الى مصر كذباً وعدنا نحن الخمسة الى البصرة وبيننا البصير ومن البصرة عدنا الى بغداد ما عدا البصير اذ ابقي فيها واسكن في منزل خاص تحت مراقبة الشرطة وكان في استقبالنا في البصرة كل من متصرف اللواء المرحوم احمد الصانع ومعاون الشرطة المرحوم سعيد العبد الواحد ومدير الشرطة البريطاني (على ما اتذكر) وعاد البصير الى بغداد بعد شهر واحد.

٧-بعد سنوات عديدة جمعتني المصادفة بالمرحوم السيد سعيد عبد الواحد (الذي كان معاوناً للشرطة في البصرة سابقا) وكان نائبا في مجلس النواب عند مقابلتي له وتحدثنا عن ذكرياتنا يوم وصولنا الى البصرة من المنفى فكان مما قال لي فيما يخص المرحوم البصير: كنت معاون شرطة البصرة آنذاك كما تعلم ورأيت كثيرين من المسجونين والموقوفين والمبعدين فلم أر أقوى نفسا ولا أكثر جلدا وشجاعة من البصير عندما ابقي في البصرة بمراقبة الشرطة والامن.

٨-وفي يوم من شهر ايلول عام ١٩٢١ زرته في داره رحمه الله وكانت تقع في محلة راس الكنيسة ووجدت زائرا قبلي فيها المرحوم علي رضا الغزالي صاحب مجلة اللسان، المجلة التي بثت الروح الوطنية في المجتمع وصدرت في صيف عام ١٩١٩ في بغداد وكان رئيس تحريرها المرحوم الذائع الصيت احمد عزة الاعظمي فدار الحديث بيننا حول المكاسب التي حصل عليها العراق من ثورته الدامية عام ١٩٢٠ وانتقل الحديث بنا الى فلسطين وقيام السلطة البريطانية في ادارتها كمستعمرة لها فأطرق البصير وقال: ان فلسطين ام القدس المقدسة سوف تثور بوجه الانكليز بثورة دامية لايعرف مداها وستقدم ضحاياها شيبها وشبانها وقد لا نراها مستقلة ونحن احياء والتفت وطلب الي ان انشر هذين البيتين في اول عدد من جريدة (الرافدين) التي سأصدرها في الاسبوع المقبل وفعلا تحلى اول عدد منها في ٢٦ ايلول سنة ١٩٢١ بالبيتين المذكورين وقد دعا فيهما للنضال المسلح مخاطبا اهلها:

أبني فلسطين تحية شاعر
من اهل بغداد سعى للمقدس
بيت الاله وانتم سكانه
أيجوز ان لا يشتري في الانفس

٩-في احدى اماسي شهر مايس ١٩٧٤ زارني الفقيد العزيز مع عائلته المحترمة وكان معي في منزلي ساعتئذ كل من الصديقين السيد جعفر الخليلي والسيد مشكور الاسدي ودار الحديث بيننا جميعاً وكان للفقيد القدح المعلى فقد حدثنا عن ذكرياته الوطنية وآرائه الادبية والشعرية وقرأ لنا بعض اشعاره الرائعة وكانت امسية في غاية الامتاع وقال لقد بلغت من العمر عتيا فكأنه كان يحصي أيامه الاخيرة.

وكانت للفقيد زيارة اخرى لي في منزلي مع عائلته المحترمة، لقد تمت هذه الزيارة الاخيرة في اليوم الثاني من شهر شوال عام ١٣٩٤ أي قبل وفاته بأحد عشر يوماً فقط فكأنه كان يودعني الوداع الاخير في هذه الزيارة الاخيرة.

وفي اليوم الاول من ايام عيد الفطر المبارك اتصلت تلفونيا بمنزله بقصد زيارته لتهنئته بالعيد فأجابني صهره السيد صادق محمود ربيع الذي كان موجودا في الدار بأنه متوعك الصحة قليلا وانه سوف يخبره بالسؤال عنه.

وما ان حل اليوم الرابع من ايام عيد الفطر حتى فجعت بتلقي اشارة بوفاة صديق العمر وزميل الجهاد والوداد الشيخ (الدكتور) محمد مهدي البصير الذي لايمكن ان أنسى ما كان يربطني به من صلات المودة والعمل المشترك والزمالة ولا أنسى انني كنت الوحيد الذي يعنى به وباحواله في جزيرة هنجام كأخ له وليس كزميل له ولا أنسى دوام صلة المودة والرابطة الاخوية القديمة التي بقيت تربط ما بيننا الى آخر يوم من ايام حياته الحافلة بالمكرمات والجهاد والتضحية والعمل الجاد المستمر.

رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم للوطن من خدمات جليلة هي مآثره الباقية.

كلمة القيت في اربعينية البصير
١٩٧٤

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

محمد مهدي البصير كما عرفته

وحيد الدين بهاء الدين

كنا في اواخر الثلاثينيات صغارا، نردد كالببغاء في المدرسة الاولية، قبيل الدخول الى الصفوف كل صبيحة، نشيداً هذا شيء منه:

وطن والحق سينجده
اصفيه الحب واع ضده
اهواه ولاولا مبدعه
لجهرت بأني اعبده
مهد التشريع ومنبته
ومنار العلم وفرقده
وابو العمران وحاضنه
ومنظمه وموطده
كم في الاصلاح له أثر
ما زال الكون يمجده

ما كنا نعرف من قائل هذا النشيد؟ وما كان ذلك يعنينا في قليل او كثير، انما الذي عرفناه انه نشيد الى جانب سائر الاناشيد الوطنية والقومية، منها "نحن الشباب لنا الغد" و"هيا ارتقوا يا قومنا" و"زهرة الايام تقضي" و" هكذا دائما نمشي الى الامام" و"وطني والخصم راغم" و" موطني" والاخيران من شعر ابراهيم طوقان.

حتى اذا خطوت الى عالم الفكر والادب خطوات و ئيدات ، ادركت ان صاحب النشيد لم يكن الا الدكتور محمد مهدي البصير.

خلال عام ١٩٧٤ تبدت عندي نزعة الادب والتشوف الى مزاولة بعض انماطه، شعرت ان قوة خفية تدفعني لارتقاء سلم لم يكن لي به عهد بغية الاطلالة على الافاق، والاندماج من درب هالني سلوكه بادئا ذي بدء قصد الكشف والشوق الى المجهول.. وهل الحياة باقبالها وادبارها ، الا الاطلالة والكشف، ذلك طريق الانسان الواعي، وعنصر حركته ورمز ديمومته.. الا أنني كنت حائراً، تتواثب امامي علامات الاستفهام ، في الوقت الذي تعصف بكياني ودوافع التردد والرهبة، لا أحس بشيء من حولي! كيف ابدأ؟ ومن اين؟ والى اين اتجه؟ قائدا او مقودا..راغبا أو راغما.. فقد كان اللواذ من هذا بالرواد والمفكرين والادباء في الاقتداء بخبراتهم ومواقفهم واستمزاج ارائهم وافكارهم سبيلا لا بديل له ولا ندحة عنه.. من الطرافة بمكان ان ازعم انني كنت وقتذاك مأخوذا بهيبة شهادة الدكتوراه بالادب، متأثراً بصداها المدوي.

فكتبت فيمن كتبت الى الدكتور محمد مهدي البصير استاذ اللغة العربية وادابها بدار المعلمين العالية، ارجوه ان يدلني على الطريقة المثلى التي تجعل مني نجما لامعا في سماء الادب.. ويدركني جواب البصير المؤرخ بالتاسع والعشرين من شهر تشرين الاول عام ١٩٤٧ ، وقد املاه على سكرتيره الخاص يومذاك، ناظم خصباك، وفيه يقول: "ان ما تدرسونه في الاعدادية من النحو والشعر والادب كاف لان يعدكم اعدادا مرضيا الى ما تنشدونه في المستقبل واذا اجتزتم هذه المرحلة وجئتم الى فرع الاداب بدار المعلمين العالية فسوف يرشدكم بشخصه الى الكتب التي تحتاجونها انذاك ويعدكم اعداداً صحيحاً الى ما تصبو اليه نفسكم الرفيعة".

كان طبيعيا ان يكون لهذا الجواب المشجع لناشيء غض العود، ناقص الخبرة مثلي، أثر جميل، وبعيد في عقله وقلبه، يدعوه الى الانتفاع بنصيحة ثمينة والاهتداء بها اذا شاء..

بعد فترة ، بينما نحن الطلبة في احد دروس اللغة العربية بثانوية كركوك للبنين، طلب منا مدرسنا ان نشرح ثم نعرب بيت حافظ ابراهيم، وقد كتبه على السبورة:

فالناس هذا حظه مال وذا
علم وذاك مكارم الاخلاق

فاختلفنا في اعرابه جميعا، والمدرس ينظر الينا باضطراب خفي، لايعرف كيف يصنع؟ لانه هو الاخر –على ما بدا وتأكد لم يكن واثقا من اعرابه، ثم

لواقع انني كنت ازور البصير او اهاتفه كلما قدمت الى بغداد من كركوك، فقد كان الرجل يحتفي بي فاتحا لي قلبه مانحا بعض محبته، وفي كل زيارة له او مهاتفة معه كانت اسباب الحديث والفكر تتواصل بيننا في مناخ من الاحترام المتبادل حتى صار يناديني بصديقه القديم.. احادثه من نوع (ما قل ودل) لا اسراف فيها ولا اسفاف ، جمله قصار حاسمة

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

شرعنا نتطلع الى الاخرين من مدرسي اللغة العربية، ونفزع اليهم ..فاذا كل منهم يعرب البيت الشعري كما يراه وكما يحلو له.. لذا وجدت الفرصة مؤاتية لاجد الثقة بالبصير، فاسأله اعراب البيت الذي حرنا فيه، وما هي الا ايام حتى يتناهى الي جوابه المؤرخ بالثالث والعشرين من كانون الاول عام ١٩٤٧ والمتضمن كل ما انشد.. وبذلك انتهجت النفس.. هكذا اتصلت بيني وبين البصير أصرة المعرفة..

سراعا تلاحقت الايام.. في شتاء عام ١٩٥٢ حضرت الى بغداد من مدينتي كركوك ، لقضاء العطلة الربيعية، ساورتني رغبة عميقة في ان ارى البصير، واحاوره في بعض شؤون الادب المعاصر.. طلبته على الهاتف.. فاذا به يرحب بي ثم يرجوني ان القاه في الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين من اليوم التالي بدار المعلمين العالية.

وفي الغد ، وفي الوقت المقرر كنت اصافح البصير في احد صفوف قسم اللغة العربية ، وهو يجالس طلابه ويجاذبهم الوانا من الحديث والطرائف، وراتفع هادئاً صوته:

-أتركوا لنا المجال..

جلست الى مقربة منه، جعل يستدرجني الى شيء لم يكن في الحسبان.. ولكي لا تفلت الفرصة مني باغته بما كان يشغل بالي:

-ماذا ترى في امارة شوقي الشعرية؟

-شوقي لا يستحق الامارة الشعرية، وهو يواصل: فكتور هوغو من اعظم شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر ، ولكنه مع ذلك ليس بأمير، واستطرد: الرصافي وحافظ ابراهيم انقى منه ديباجة.

قلت: اذن تؤمر من؟

-بغير تحفظ: أنا اؤمر جبران خليل جبران..

هنا تبسمت ولولا خشية الافتضاح لاسترسلت في ضحكة مجلجلة لغرابة ما ترامى الي..

وتابع البصير سائلا اياي:

-هل قرأت كتابه "الاجنحة المتكسرة"؟

-نعم قرأته قبل سنين..

-هذا الكتاب كله شعر وموسيقى..

وقلت له: كيف تنظر الى طه حسين؟

-انه من اصدقائي ، وسبق ان التقينا..

قلت- اريد رأيك فيه..

-كاتب طيب.. وعجلت اقول: وعظيم..

سكت البصير.. واخذ يرفع رأسه بشموخ.

ثم لا ادري ما جرى من حديث، لكن الذي اتذكره ان جرس الدرس دق، استأذنت البصير بالخروج فاستوى واقفا ضاحكاً:

-الدرس ليس لي؟ وتصافحنا..

بعد اشهر.. وفي ١٩٥٢/٦/١٦ بالذات اهدى الي البصير نسخة من كتابه (خطرات) وكنت انذاك احرر الى القسم العربي من صحيفة "كركوك" فكتبت عنه مقالا عنوانه "الدكتور محمد مهدي البصير" وكتابه خطرات.

(٢) جاء فيه بالحرف الواحد: "الحقيقة ان هذه الخطرات تدل دلالة واضحة على غزارة مادة الدكتور البصير وعمق تفكيره واصالة رأيه ورسوخ عقيدته.. بحيث ان كل قول من اقواله يصلح ان يكون مقالا مستفيضاً.."

واتفق ان سافرت بعد ذلك الى بغداد لمهمة شخصية، هناك هاتفت البصير محييا ومستطلعا رأيه في مقالي عنه. فاذا به يبدي ارتياحه من ما نشرت ، ويثني على شخصي الضعيف.. بينما الدكتور مصطفى جواد وقد لقيته وانا ببغداد قال لي بطرافته المعهودة ، وكان قرأ المقال ذاته:

-لقد اليست البصير معطفا اكبر منه؟

لفني الصمت، من غير ان اعلق مكتفيا بشبه بسمة... جائز انني كنت مغاليا في تقدير البصير وتقويم كتابه.. على اية حال كل شيء مرهون بموقف الانسان وبظروفه...

الواقع انني كنت ازور البصير او اهاتفه كلما قدمت الى بغداد من كركوك، فقد كان الرجل يحتفي بي فاتحا لي قلبه مانحا بعض محبته، وفي كل زيارة له او مهاتفة معه كانت اسباب الحديث والفكر تتواصل بيننا في مناخ من الاحترام المتبادل حتى صار يناديني بصديقه القديم.. احادثه من نوع (ما قل ودل) لا اسراف فيها ولا اسفاف ، جمله قصار حاسمة، مركزة ومشحونة احيانا بايماء وايحاء، وقد يلبث طويلا وهوساكت لايتكلم – والسكوت كما قيل من الذهب – ان لم يكن ثمة ما يستدرجه او من يبادئه، فقد وجدت رجالا من هذا القبيل، يؤثرون الصمت على اللغو الفارغ، وفي الصمت حينا بلاغة اين منها بلاغة الكلام.

منذ اقمت ببغداد في اواخر عام ١٩٦٤ لم اقابل البصير الا مرات ثلاثا اذا لم تخني الذاكرة ، لعل شواغل هذه الحياة التي تمتص قوانا العقلية والوجدانية ، هي الباعثة على ذلك كله، انما ما نوهت به وما سأنوه لايعدو ان يشكل خطوطا باهتة علقت بخاطري من معظم ما دار بيننا عبر اللقاءات والمطارحات خلال هذه الاعوام الطوال..

ذات مرة بينما البصير يتحدث الى الي وانا جالس اليه بدارته عن ابنائه الذين كانوا يدرسون بالخارج اذ دخلت علينا زوجته الفرنسية ورفيقته في درب الفكر.. ورحبت بي مصافحة اياي.. هنا هجس في نفسي خاطر جاد به الموقف فاسأل به البصير:

-هل ابناؤك متأثرون بك اكثر او بامهم؟

عجل دون تردد: انا متأثر بامهم..

فعلقت:

-وكيف لايتأثر بها ابناؤها؟

وفي اوائل شهر اب اللهاب من عام ١٩٦٧ اشتقت الى البصير وقد بعد بنا العهد.. قصدته بدارته بالوزيرية .. اول ما فعله ان تفضل فأهدى الى نسخة من كتابه (سوانح) ..فوجدتني اتصفحه بلا عمد، واصادف في موضوع له، ان ينقد بعضا من مسرحيات توفيق الحكيم نقدا شديدا ، فقلت:

-لعل لك رأياً في ادب توفيق الحكيم؟

وبهدوء ظاهر: هراء كتبه ..سخف في سخف واستطرد: لديك كتابي الجديد اقرأ فيه ما فيه الكفاية عن هذا الشخص..

جوابه جعلني اعقب: الكتب الجيدة الاصيلة قليلة قلة اصحابها..

قال- اؤيدك في هذا كل التأييد ، ثم اورد قولا –نسيته – من كتابه "خطرات" في تعزيز ذلك الرأي..

قلت له: تقول في كتابك "خطرات" إنه أدب بلا نزاهة لجمال بلا عفة"..

هل معناه ان الادب ينبغي ان يكون بعيدا عن التبعية وان الاديب ينبغي ان لايغير رأيه في قضية –سبق ان ابدى بها رأيه –مهما تبدلت الاحوال والظروف؟

اجاب –اذا غير الاديب رايه تبعا للمصلحة العامة فهو رجل نزيه..

قلت –قرأت لك تعقيبات ونقدات على كل من شوقي والرصافي؟

قال- شوقي متوسط وله حسنات، والرصافي شاعر كبير وله سقطات.

وانعطفت به الى مجرى اخر: الى يوم الناس هذا، لم ينل أي اديب او شاعر عربي، جائزة نوبل، ما السر؟ الا ترى للسياسة دخلا في ذلك؟

رد- ان ادباء العرب وشعراءهم غير مقروئين على العموم في خارج العالم العربي، ولذلك فان اعضاء اكاديمية نوبل وغيرهم معذورون في عدم منح جائزة نوبل لاديب، وقد اخطئ كثيرا اذا قلت: انني لا اعرف اديبا عربيا يستحق جائزة نوبل..

في السادس والعشرين من شهر نيسان من عام ١٩٧١ وددت ان اجدد ما بيني وبين البصير من صلات الفكر والوجدان، ان مر على لقائنا الاخير ما يقارب الاربع سنين، وعلى اسلاك الهاتف ، قال وكله سرور وانشراح:

-غدا في الساعة الخامسة، انت مدعو الى مائدة الشاي عند البصير، فالى مائدة الشاي ياصديقي القديم..

ولما كان من الغد وفي الوقت المحدد ، استقبلني البصير كعادته بمكتبته وهو يردد: اهلا وسهلا ، اهلا.. ..اهلا ..ما ان اطمأن بنا الجلوس حتى ابتسم بسخرية لاذعة قائلاً: قبيل وصولك كنت استمع الى اذاعة الكويت، حيث كان حوار بين المذيع وشاعر اسمه عبد المعطي حجازي..فقلت:

-اعرفه ..وسبق لي ان التقيت به.. انه مصري.

لقد استسخفت رأيه ..لانه يقول: ان التجديد في الشعر بدأ في مطلع الخمسينيات ..هذا يعني ان شعراء ما قبل الخمسينيات لم يعبروا عن الواقع ..ولم يتحدثوا..وتابع البصير: ألم يكن شوقي عندما تحدث في اشعاره واقعيا؟ وألم يكن الرصافي واقعياً في هجومه على السلطان، وانتقاد الادارة العراقية؟ وألم يكن الزهاوي في هجومه على السلطان العثماني معبرا عن الواقع؟

-الذي ادركه ان عبد المعطي حجازي من دعاة الشعر الحر..

-العودة الى الاطلال الدارسة وما اليها ومن موضوعات بالية خير من هذه السفسطة التي يسمونها الشعر الحر..

هنا دخلت علينا زوجته وهي على جاري عادتها ترحب، يسبقها تقديم زوجها: مدام البصير..

انها اعدت لنا مائدة الشاي.. وددت ان يتخلل جونا حديث مستطرد، فقلت:

-اطلعت على ما يخص حياتك وادبك في كتاب "شعراء العراق في القرن العشرين" الذي اعده الدكتور يوسف عز الدين ؟

عقب شبه متأثر: انه ناقص.. لا صلة لما اوردته، ونقله مني السيد صبيح رديف؟

-الشي بالشيء يذكر، كذلك سبق ان قرأت ما كتبه رفائيل بطي في كتابه "الادب العصري في العراق"؟

قال البصير بلهجة ناقدة:

-ان رفائيل بطي رتب كتابه ترتيبا غير موضوعي .

فوضع آل كاشف الغطاء في الطبقة الثانية بينما الطبقة الاولى من الشعرا تفتخر به. كما ان الزهاوي جاء قبل عبد المحسن الكاظمي، في الوقت الذي يعد هذا الشاعر الكاظمي اعظم شاعر في العراق والبلاد العربية في مقدرة الارتجال ، اذ انه ارتجل مئة بيت في لحظة آنية..

وانسياقا وراء العفوية والتداعي عرج البصير وهو يتحدث عن الكاظمي ، على سليم سركيس منتقدا اياه، لانه –أي سليم سركيس – وان اقام حفلة تكريمية للكاظمي الذي ارتجل بها قصيدة فاقت اربعين بيتا ومستهلها:

الغرب في يقظاته كاللهب

والعرب في غفلاته كاللعب

غير انه حاول ان يغمز قناة الكاظمي بان كتب قصيدته هذه دون ان يرتجلها.

قلت: مات الدكتور مصطفى جواد، لاشك كان لموته رنة اسى في الاوساط العلمية والادبية ، فهل لي ان اعرف رأيك الصريح فيه؟

قال: ان بحوثه اللغوية لاباس بها، وشعره اوطأ من بحوثه.. ورسالته الدكتوراه لم تترجم الى العربية ، وقيل انها لم تكتب الا بالفرنسية وانها ايضا –كما قيل – لم تكتب الا بالعربية، وهو زميل لي.

-اذا كان هذا رايك في زميل لك، فكيف تنظر الى طلابك..؟

-انا معتز بطلابي الذين يحبونني ك(علي جواد الطاهر..وناصر الحاني، وحسين علي محفوظ. وصالح جواد الطعمة) ومن اليهم..

-سبق ان تلوت ما نشره علي جواد الطاهر عنك في مجلة "الاديب" اللبنانية، وما نشره ناصر الحاني في ملحق صحيفة "الجمهورية" وما نشره صالح جواد الطعمة في "الهاتف الاسبوعي"..اما حسين علي محفوظ فقد سمعته يقول في مجلس كنت احد الحاضرين فيه: ما رأيت البصير الا قبلت يده.. احمر وجه البصير ولم ينبس.. الا ان ردد:

-استغفر الله..

قبيل ان اخرج من عند البصير مصافحا..مودعا، استمهلني بعض الشيء.. ثم جاءني وبيده نسخة من الطبعة الثالثة من كتابه "في الادب العباسي" هدية رائعة ، فتقبلتها شاكراً ذاكراً له شعوره..

لقد كان ذلك اخر لقاء بالبصير.. وجرفتني تيارات الحياة ومتاعبها الى ما اشتهي وما لا اشتهي.. فلم يتسن لي زيارة البصير، ولا الاتصال الهاتفي به..ايا اسفا!

وفي الصبيحة الباكرة من التاسع عشر من شهر تشرين الاول عام ١٩٧٤، غاب البصير الى الأبد مرتحلا عن دنيانا، وقد اسهم في ثورة العشرين بكل وجدانه وكيانه، وشارك في ارساء النهضة الادبية والتربوية بالقطر العراقي، وادى واجبه نحو امته ووطنه ومجتمعه بما ارضى نفسه والاخرين .

مجلة الاديب اللبنانية اذار ١٩٧٥

تلاحقت الايام.. في شتاء عام ١٩٥٢ حضرت الى بغداد من مدينتي كركوك ، لقضاء العطلة الربيعية، ساورتني رغبة عميقة في ان ارى البصير ، واحاوره في بعض شؤون الادب المعاصر.. طلبته على الهاتف..فاذا به يرحب بي ثم يرجوني ان القاه في الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين من اليوم التالي بدار المعلمين العالية. وفي الغد ، وفي الوقت المقرر كنت اصافح البصير في احد صفوف قسم اللغة العربية

عراقيون من زمن التوهج
العدد (1704)
السنة السابعة
الخميس (21)
كانون الثاني2010

في سير اعلام تاريخنا الحديث الكثير من الصفحات المطوية الجديرة بالبحث والاستجلاء، ومنها صفحات رئيسة في تلك السير، وهي ليست من شوارد التاريخ أو مهملاته، بل مر بها الباحثون على عجل لأسباب مختلفة، وفي مقدمتها غياب وثائقها ورحيل شخوصها، كما ان بعض هذه الصفحات ، أنطوت بسبب حرص أصحابها على بقائها مطوية، وقد كتبنا في مقالات مختلفة الشيء الكثير عن ذلك، ومن ذلك انقطاع الشاعر الكبير الدكتور محمد مهدي البصير عن نظم الشعر الذي عرف به ابان الثورة العراقية الكبرى عام ١٩٢٠ وما بعدها بقليل.

كيف طلق البصير السياسة وشعرها؟!

رفعة عبدالرزاق محمد

لقد كان البصير شاعر ثورة العشرين بحق وبه ذاع امره بين الناس، وكان له الدور الكبير في تحريض الشعب ضد الاحتلال البريطاني ونيل الاستقلال ، وتحقق ما كان يريده من قدومه الى بغداد باندلاع الثورة.

ختم اللسان جهاده
وغزت عن الكتب الكتائب
فلتصمتن يراعتي
ولتصغين الى القواضب
لي امس كان وقد مضى
واليوم للبطل المحارب

والامر معروف لمتتبعي سيرة البصير بما لاقاه بسبب مشاركته الفاعلة في التحريض على الثورة.. واستمر الامر بعد انتهاء الثورة وقيام الحكومة العراقية المؤقتة ، فنقل جهاده الشعري، الى جريدة (الاستقلال) البغدادية لصاحبها عبد الغفور البدري، اذ كانت لسان الحركة الوطنية المعارضة، وما ان عطلتها السلطة في ٩ شباط عام ١٩٢١ ، حتى القت القبض على محرريها قاسم العلوي ومحمد مهدي البصير، فضلاً عن صاحبها البدري، وساقتهم الى المحكمة، فكان نصيب البصير السجن لمدة تسعة اشهر بتهمة الاخلال بالامن والتحريض ضد السلطة، وبقي البصير في السجن حتى قدوم فيصل الاول ملكا على العراق فأفرج عنه بكفالة نقدية على ان يبقى تحت الرقابة.

وعند تأسيس (الحزب الوطني) عام ١٩٢٢ بزعامة جعفر ابو التمن، وهو حزب المعارضة الوطنية، كان الشيخ محمد مهدي البصير من المساهمين في تأسيسه وأنتخب عضوا في لجنته التأسيسية، واستمر في نهجه السياسي المعارض ، حتى اذا حلت الذكرى الاولى لتتويج الملك فيصل في ٢٣ اب عام ١٩٢٢ ، قام الحزب الوطني مع (حزب النهضة) بتظاهرة سلمية، وانتدب البصير ليلقي خطبة في البلاط الملكي يعرض فيها مطالب الحركة الوطنية، وقد فصلت الامر في مقال سابق لي عنوانه (إستجلاء موقف فهمي المدرس في ذكرى التتويج) والمهم ان البصير القى كلمته التي تجد نصها في كتابه (تاريخ القضية العراقية) واثناء ذلك حضر المندوب السامي السر برسي كوكس الى البلاط الملكي فاسمعه المتظاهرون ما لا يود سماعه، ما اثار حفيظته وادى الامر الى عزل كبير امناء الملك فهمي المدرس، وفي اليوم التالي عمد كوكس الذي انتهز دخول الملك المستشفى الى اغلاق الحزبين الوطني والنهضة.. ومصادرة جريدتيهما (المفيد والرافدين) كما امر باعتقال سبعة اشخاص من بينهم رئيس الحزب الوطني جعفر ابو التمن ومحمد مهدي البصير ونفيهم الى جزيرة (هنجام) في الخليج العربي.

وظل البصير ورفاقه في جزيرة (هنجام) حتى شباط عام ١٩٢٣ حيث سمح لهم بالعودة الى العراق، وبقي البصير في البصرة الى ان سمح له بالعودة الى بغداد في ٢٤ مايس عام ١٩٢٣.

وهنا انتقل البصير الى مرحلة جديدة، في حياته السياسية الثائرة ، فقد عا مهادنا للسلطة ، فأنصرف اولاً الى تأليف كتابة (تاريخ القضية العراقية الجزء به (١٩٢٣/ ١٩٢٤) ،وقد اصبح هذا الكتاب مصدراً مهماً عن الثورة العراقية وتأسيس الدولة العراقية، لقد خلد البصير الى الهدوء وانصرف الى التأليف والتدريس فأنتدب لتدريس الادب العربي في الثانوية المركزية ثم جامعة آل البيت في الاعظمية.

لم ينظم البصير شيئاً من الشعر السياسي بعد عودته من النفي، ولم يجد الباحثون سوى قصيدة سياسية واحدة بعنوان (عهود ام قيود)؟ انشدها في حفلة أفتتاح (الحزب الوطني العراقي) في ٢٧ ايلول عام ١٩٢٨، فقد بعث هذا الحزب ثانية ، بزعامة جعفر ابو التمن ايضاً، وكان محمد مهدي البصير عضو لجنته التأسيسية والتنفيذية، وبقي الى ان ترك السياسة عام ١٩٣٠ وأوفد الى خارج العراق للدراسة.

ولكن ، اليس هو القائل:

قالوا: سجنت لرأي كنت تعلنه
فاكتم وحسبك ما عانيت من غصص
فقلت هيهات سجني لا يغيرني

إن الهزار ليشدو وهو في القفص

اجرت جريدة (البلد) البغدادية لصاحبها المرحوم عبد القادر البراك لقاء مع الدكتور محمد مهدي البصير بتاريخ ٢ آب عام ١٩٦٦ جاء في اللقاء: ... ولكن حياته لاتخلو من غموض في بعض النواحي، فبينما هو يهز المشاعر ، ويثير الخواطر بقصائده المتتالية ١٩٢٠/ ١٩٢٢ كما يشهد به ديوانه (البركان) اذ به يسكت فجأة ويمتنع عن قرض الشعر، كأنه لم يكن بالأمس القريب شاعر الثورة والشعب والجهاد.

وقد استغربنا هذه الظاهرة في حياته ، وحاولنا إستجلاء دخيلة نفسه، وبحثنا سر سكوته، فكان لنا لقاء معه، قلت له: في حياتك ظاهرة عجيبة ، فقد كانت قصائدك تتوالى، ولكنك سكت فجأة وعلى غير انتظار قبيل نفيك الى جزيرة هنجام عام ١٩٢٢ ، فما معنى ذلك؟

صمت قليلاً، ثم عاد ليقول:

معنى ذلك ياصديقي أني طلقت الشعر فجأة ولسبب قد لايوجد على مسرح الحياة من يعرفه غيري.. ففي يوم من ايام حزيران عام ١٩٢٢ صرح المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطاني يومئذ في مجلس العموم ان ملك العراق وشعبه يرحبان بالانتداب البريطاني ، ونزل الخبر على المحافل الوطنية في بغداد نزول الصاعقة فبادرنا لعقد اجتماع جماهيري في جامع الحيدرخانة القيت فيه خطبة ضافية شرحت فيها الموقف من وجهة نظري وفندت اقوال المستمر تشرشل تفنيداً قاطعاً وطلبت الى المجتمعين في نهاية الخطبة ان يوافقوا على انتداب خمسة اشخاص ليقوموا بما يلزم ازاء تصريحات المستر تشرشل ، والاشخاص الخمسة الذين رشحتهم: هم المغفور لهم ياسين باشا الهاشمي والسيد محمد الصدر والشيخ محمد الخالصي، والشيخ احمد الشيخ داود وحمدي الباجه جي، وكان الجمهور كريماً فطلب الي ان اكون احد المندوبين فقبلت شاكرا، واجتمعنا في اليوم التالي وقررنا ، ارسال برقيات احتجاجية شديدة اللهجة على بيانات المستر تشرشل الى عصبة الامم في جنيف ومجلس العموم البريطاني.

ولكن لما كان الملك فيصل طرفاً في الموضوع رأينا ان لا نبت في شيء قبل ان نتذاكر معه في الامر، فطلبنا اليه ان يحدد لنا موعداً لنجتمع معه ونشرح له وجهة نظرنا ، ولبى الملك الطلب فلما حضرنا عنده التفت الي وقال:

-يا بصير انك تعرف ان الشعر شيء والسياسة شيء آخر.

-لقد كنت اظن اني اخدم العراق بشعري خدمة صادقة ، ولكن ما دمتم تقولون مثل هذا فأني سأترك الشعر من هذه اللحظة.

-أني لم اقل ولايمكن ان اقول لك إترك الشعر، ولكني اقول ان الشعر يقوم على الخيال والعاطفة وما أشبه ذلك. والسياسة تقوم على حقائق الحياة العملية وما اليها، وأنت تعرف ذلك كل المعرفة.

-قضي الامر فلن انشد شعرا بعد اليوم، ولم انضم قصيدة من ذلك التاريخ حتى بعث الحزب الوطني العراقي في عام ١٩٢٨ وكنت من مؤسسيه وقررنا ان نحتفل بأفتتاحه، فطلب الي الزملاء في اللجنة التأسيسية ان اسهم في حفلة الافتتاح فأخبرتهم بما أخبرتك به الان، فقالوا هذه حكاية قديرة وقد الزمت نفسك فيما لايلزم.. ونحن نريد قصيدة في حفل أفتتاح الحزب ولايمكن قبول أي عذر في هذا... وأصبحت علاقتي بالشعر بعد هذا ثانوية، أي أني كنت اقوله عندما يطيب لي ان اقوله وعندما يطلب الي ان اقوله.

هذا ما ذكره الدكتور البصير على سبب انقطاعه عن نظم الشعر السياسي، ويبدو ان الامر استمر معه الى النهاية فما نظمه بعد ذلك لايعد شيئاً اما ما قاله قبل عام ١٩٢٢ من خطب وقصائد حماسية، استنهضت الهمم والهبت الشعور الوطني.

اما سبب اعتزاله السياسة، فله قصة حاول الكثيرون القفز فوقها تهيباً لموقع الدكتور البصير وتقديراً لمواقفه الوطنية، فعندما تألفت وزارة نوري السعيد الاولى عام ١٩٣٠، كانت مهمتها الرئيسة ابرام معاهدة جديدة بين العراق وبريطانيا، وكان السعيد يشعر ان المعارضة الوطنية المتمثلة بالحزب الوطني العراقي ستقف موقفاً قوياً ضد تمرير المعاهدة. شرع نوري السعيد بتفتيت تلك المعارضة وضربها من الداخل ، وتلك سياسة انتهجها السعيد طوال حياته السياسية، فبدأ بحل المجلس النيابي والتهيئة لأنتخاب مجلس جديد يضمن به اقرار المعاهدة الجديدة اليت لقيت معارضة شديدة من قبل ا لشعب

وصحافته.

دعا الحزب الوطني العراقي بزعامة جعفر ابو التمن الى مقاطعة الانتخابات لأيجاد اسباب الطعن بالمعاهدة في المستقبل بالاجراءات التي تم في ظلها التصديق على المعاهدة والقول ان المجلس النيابي الذي خلقته الحكومة مجلساً حكومياً لايمثل الشعب العراقي.

اما نوري السعيد، ويعرف دخائل الجميع..ويدرك نقاط الضعف في كل شخصية سياسية، فقد قرر التلويح بالمكاسب التي يجنيها الخارجون على قرار الحزب الوطني العراقي بمقاطعة الانتخابات..وهكذا فقد الحزب عضوين بارزين من اعضاء لجنته المركزية ومن مؤسسي الحزب هما بهجت زينل ومحمد مهدي البصير، وكان السعيد قد كسب الى جانبه مزاحم الباجه جي، الذي من اشد معارضي وزارة السعيد، فأصبح وزيراً للاقتصاد ثم وزيراً للداخلية، فقرر الحزب فصله.

نشر بهجت زينل استقالته في احدى صحف بغداد يوم ٨ اب عام ١٩٣٠ وعندما جرت انتخابات انتخب عن (لواء الكون) غير انه كان من معارضي المعاهدة الجديدة.

اما الشيخ محمد مهدي البصير، فقيل ان نوري السعيد لوح له اولاً تولي وزارة المعارف، غير انه وافق على الخروج من الحزب الوطني العراقي لقاء ترشيحه للدراسة في فرنسا، يقول الاستاذ حسين جميل في اوراقه التي هيأها لتكون القسم الثاني من كتابه (العراق، شهادة سياسية):

«اما مهدي البصير فأنه كان قد فقد بصره وهو صغير السن ، وينسب اليه انه كانت لديه عقدة طه حسين فهو يريد ان يكون نظيره في العراق ولاسيما انه أديب وشاعر، والمعروف ان نوري السعيد استغل هذه المسألة فأغراه بالاستقالة من الحزب الوطني مقابل ان يرسله في بعثة للدراسة في مصر وبعدها الى فرنسا، وقد تم ذلك وكان نتيجة هذه الصفقة ان حصل على الدكتوراه في الأدب الفرنسي..»

وهكذا طلق البصير السياسة بعد ان طلق الشعر السياسي، وأوفد في بعثة دراسية الى مصر عام ١٩٣٠ ضمن بعثة الاوقاف، وأمضى في مصر سنه دراسية واحدة ، درس فيها اللغة الفرنسية وأتصل بالحياة الثقافية الزاخرة في مصر واقام علاقات ادبية مع طه حسين ومحمد حسين هيكل ومنصور فهمي وعلي عبد الرازق ، وبعد اتم سنته الاولى ابحر الى فرنسا لأكمال دراسته هناك.

نال الدبلوم فالدكتوراه من جامعة مونبلييه (اواخر عام ١٩٣٧) وكان موضوع أطروحته (شعر كورناي الغنائي)، وعاد الى بغداد وبرفقة زوجته الفرنسية السيدة (إيفون أوجين ادمون) التي عملت مدرسة في كلية الاداب بجامعة بغداد فيما بعد، وعين البصير في شباط عام ١٩٣٨ استاذا في دار المعلمين العالية (كلية التربية) واستمر بهذا المنصب الى ان أحيل على التقاعد في تموز عام ١٩٥٩ ، وتفرغ بعد ذلك للبحث والتأليف ومراجعة كتبه المطبوعة سابقاً الى أوان رحيله فجر يوم ١٩ تشرين الاول عام ١٩٧٤.

الدكتور محمد مهدي البصير:

أنا وطه حسين والمعري عائلة

جاسم محمد كاظم

الدكتور محمد مهدي بن الشيخ محمد البصير

الرجل الموسوعة (سياسي، خطيب، مؤلف، شاعر، أديب، مترجم، ثائر!!!) جمع البصير كل هذه المجالات المهمة والصعبة في عقلية واعية وقابلية قل نظيرها وقد استطاع بحكمة ودراية أن يوزع اهتماماته كل حسب استحقاقه. وأن يكون متفوقاً ومؤثراً فهو بالسياسة سياسي لامع وله دور بالغ التأثير ويحسب له ألف حساب من أعدائه وأصدقائه. وخطيباً مسموعاً تعمل كلمته الخطابية فعلها وتأتي ثمارها وتلهب الحماس وتثير الهمم. ولكونه مؤلفاً فله عدة مؤلفات. بالتاريخ والشعر والسياسة. وقد كان أديباً ملماً بجميع صنوف الأدب تقريباً في تلك المرحلة التي كان يعيشها وقد ترجم إلى الفرنسية العديد من النتاجات الأدبية والشعرية والخطابية. وقد كان ثائراً أقض مضاجع أعدائه وأعداء الوطن وقد قاتل بكل ما يملك من قوة الخطابة والشعر حتى أنه طورد واعتقل ونفي.

ولادته ونشأته: ولد الدكتور (الموسوعي) محمد مهدي بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الحسين في عام ٢٤-حزيران- ١٨٩٥م. في محلة الطاق من الحلة القديمة. لقد كان اسمه مركباً أي أن اسمه الأول (محمد مهدي) وأسم والده (محمد عبد الحسين).

نشأته: نشأ في كنف أسرة دينية تمتهن الخطابة على المنابر الحسينية ومن هنا فلابد أن يتأثر البصير بهذه الأجواء والبيئة فنشأ نشأة دينية أدبية خطابية. وقد كان والده يرعاه ويشجعه ويمده بكل ما يحتاجه، وقد بعث به إلى الكتاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم والحديث ودراسة العلوم الشرعية والعلوم العربية. ولقد سارع في التعلم وهو لم يبلغ الخامسة من عمره وتفوق على أقرانه وعلى من هم أكبر من عمره لا بل فاق بعض معلميه.

فقدان بصره: حرم (الدكتور محمد مهدي البصير) نعمة البصر وهو في عمر الخامسة حيث كان مرض الجدري منتشراً في مدينته وقد تحدث عن ذلك بنفسه فقال في إحدى المقابلات كنت قد لقحت ضد مرض الجدري وخرجت إلى الشارع فأبصرت كلباً أسود اللون ضخماً للغاية فخفت خوفاً شديداً ورجعت إلى فراشي فنمت نوماً عميقاً لم استيقظ منه إلا والجدري قد انتشر في جميع أنحاء جسمي وقد فقدت على أثرها بصري.

إن الله العلي القدير قد عوض البصير بنور البصيرة وبذكاء متوقد وحافظة نادرة وصار ذا شأن في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية. وهذا ما يعجز عنه كثير من المبصرين، ولقب محمد مهدي (بالبصير) من باب تسمية الشيء بضده. وقد كان يعرف بهذا اللقب دون لقب عائلته وصار يتميز به حتى بعد انتقاله إلى جوار ربه.

الخطابة: ذكرنا بأن أسرته اشتهرت بالخطابة. وقد أراد له أبوه أن يكون خطيباً فسهل له الاتصال بالأدباء والشعراء والخطباء وتعلم (القرآن الكريم) ولم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى رأى والده أن ولده بلغ المرام وهو أهل بارتداء (العمّة) وان يمضي قدماً في الدروس والعلوم العربية والدينية. علمه والده كيف تكون الخطابة على المنبر حيث سمح له في أول الأمر أن يقرأ (البصير) المقدمة وهي إلقاء ما تيسر من الشعر ويكمل والده القسم الثاني وهو الوعظ والإرشاد وما يتصل بمأساة (الحسين) (ع) ولكن البصير كان ينتهز فرصة غياب والده فيكمل القسم الثاني بنفسه كما حدث في ذات يوم حيث بدأ المقدمة واستمر في القسم الثاني وكان والده بين الجالسين يستمع لحديثه فأعجبه ومنذ ذلك الحين فك الشراكة مع والده حيث صار خطيباً يعتمد على ذاته. ولقبته الجماهير بخطيب ثورة العشرين (وميرابو) العراق تشبيهاً بخطيب الثورة الفرنسية.

السياسة: ظهرت ميول البصير السياسية في وقت مبكر من حياته منذ الحرب العالمية الأولى حيث نظم أول قصيدة سياسية في هذه الحرب. فقد كان قبل ذلك ذا اهتمامات دينية وكانت قصائده ضمن ذلك المضمار. وبما أنه شاعر متميز وصاحب كلمة مؤثرة وان أغلبية الشعراء في العراق يؤيدون الدولة العثمانية في مواقفها وحروبها ضد بريطانيا والحلفاء. فكانت جريدة (صدى الإسلام) تنشر قصائدهم المساندة للحكومة العثمانية لأنهم يعتقدون بأنها دولة مسلمة ولابد من مساندتها لأن التيار الإسلامي والمعتقد الديني هو المؤثر بجانب الدور السياسي. وقد تغير موقف البصير من مساندة الدولة العثمانية لاكتشافه انها ساندت ألمانيا وبذلك تكون قد باعت نفسها لألمانيا، وقد انتقد الساسة العثمانيين في قصائده لكونهم اتبعوا سياسة التتريك وضرب العناصر التي ترفض هذه السياسة.

البصير يدخل مرحلة العمل السياسي المنظم: في عام ١٩١٩ تألفت في العراق جمعية سرية سياسية تدعى (جمعية حرس الاستقلال) من أهدافها استقلال العراق ومساندة الملك. وتوحيد كلمة العراقيين على اختلاف مللهم ونحلهم وطوائفهم، وطلب من البصير أن يؤسس لها فرعاً في مدينته (الحلة) فأسس الفرع وكان أمين سره. وقد استمر بعمله السياسي حتى قامت ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠م فكان قد كرس أدبه وشعره وخطابته لحماسة الجماهير الثائرة وقد أثر تأثيراً مباشراً فيها وصارت كلماته تدوي وتسمع كما يدوي المدفع، وقد كان دوره فيها بارزا وصار يسمى بشاعر ثورة العشرين.

ولعل أشهر واروع قصيدة له حافلة بالمعاني الوطنية والتضحية والفداء القاها في جامع الحيدر خانة ببغداد بعد إعلان الثورة العراقية في ٣٠-حزيران-١٩٢٠ بعنوان (لبيك أيها الوطن) ويقول فيها:

إن ضاق يا وطني عَليَّ فضاكا
فلتتسع بي للأمام خطاكا
أجرى ثراك دمي فأن أنا خنته
فلينبذني أن ثويتُ ثراكا
بك همت بل بالموت دونك في الوغى
روحي فداك متى أكون فداكا
هب لي بربك موتة تختارها
يا موطني أولست من أبناكا

الشعر: ظهر ميل البصير إلى الأدب والشعر في وقت مبكر من حياته وقد كان يحفظ الشعر وهو صبي في عمر السابعة وقد شجعه جده الشيخ عبد الحسين وكان يحفظه ويعلمه ويكافئه عن كل عشرة أبيات يحفظها بقرش وكان البصير شغوفاً بشعر السيد حيدر الحلي.

- وفي سن العاشرة أخذ يغير بكلمات السيد الحلي وينسج على منوالها ويأخذ أبياتاً فيمسخها ليؤلف منها قصيدة. وبقي فترة على ذلك المنوال. وقد عرف البصير الشعر بأنه: كلام عذب ينقل العواطف والأحاسيس من نفس إلى أخرى.

وبعد هذه المرحلة أخذ البصير يتابع حركة الشعر في محافظته وبقية المحافظات العراقية ويتردد على الشعراء ليتزود المعرفة منهم كما واصل قراءة الدواوين الشعرية منها (ديوان المتنبي وديوان الشريف الرضي وأبي العلاء المعري) وحفظ الشيء الكثير من شعر (المقتبسات) أي الشعر المقتبس من القرآن الكريم.

أول بيتين قالهما البصير من نظمه:

سلسال ثغرك يا رشا لم يرومنهُ العاشقونا
وبريقك المعسول فل يتنافس المتنافسونا

وقد نظمهما وهو في الرابعة عشرة من عمره ومن ذلك التاريخ وهو يكتب الشعر وقد ألف الكثير من قصائد المدح والرثاء والغزل إضافة إلى القصائد الدينية التي تمجد رسول الله (ص) وآل بيته الكرام.

حافظته: يذكر أن الدكتور البصير يتمتع بحافظة كبيرة ومشهودة له كما كان المعري معروفاً بأنه قال: (ما سمعت شيئاً إلا وحفظته وما حفظت شيئا ونسيته). والبصير مثال نادر لقوة الذاكرة وقدرة عجيبة في الحفظ فقد كان يحفظ الشعر والأخبار والنصوص بمجرد سماعها مرة واحدة، وهناك طرائف رافقت حياة الدكتور البصير لقوة ذاكرته وموهبته الفذة. فقد كان يزور (حبيب بيك بن محمد باشا) وكان هذا أديباً يحفظ الشعر الجيد ويحب مجالسة الأدباء والشعراء وقد كان أحد أفراد أسرة الشاوي موجوداً مع حبيب بك فقال الشاوي للبصير يا شيخ وردتني قصيدة من خالي في الإستانة وأود أن تسمعها مع الحضور. ولما كان الشاوي يقرأ وكان البصير يستعيد ويستحسن وما أن فرغ القارئ حتى قال له البصير أرجو أن لا تغضب مني فهذه القصيدة من نظمي وأن شئت قرأتها لك. فقرأها!! ثم قال له ولها تتمة فانشدها وكانت منسجمة معها في المعنى والقافية، عجب الشاوي من هذا الأمر وتحير. فحين علم بحيرته قال له لا تعجب ولا تتحير فالقصيدة لخالك وأن حفظتها منك فوراً ونظمت تتمتها ارتجالاً.

زار الدكتور محمد مهدي البصير الدكتور والأديب المصري المعروف طه حسين في القاهرة وقد كان قريب الشبه له بكل شيء في العمر والأدب والشعر وحتى الدراسة في فرنسا وقد كان صديقاً حميماً له وحين استقبله وسأله عن صحته قال البصير له هل تعلم بأن هذه الجلسة ينقصها الشاعر أبي العلاء المعري فهو تماماً يكملنا. والمعروف بأن المعري قد أصيب وهو طفل بالجدري وفقد عينيه تماماً كطه حسين والبصير.

(تجدر الإشارة الى إن الأديب الكويتي المعاصر عبد الرزاق البصير الذي هو الآخر فقد بصره بعمر ٣ سنوات بسبب مرض الجدري قد سأل والده بأن يلقحه ضد المرض أحد أقطاب الفقه في وقتها فأشار عليه بأن التلقيح حرام!!)

بعض من كتبه ودواوينه المطبوعة والمنشورة: ١- ديوان الشذرات. ٢- ديوان المختصر. ٣- تاريخ القضية العراقية. ٤- دولة الدخلاء. ٥- أطروحته التي تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه (شعر كورني الغنائي). ٦- بعث الشعر الجاهلي. ٧- عصر القرآن. ٨- البركان (ديوان شعر سياسي). ٩- المجموعة الشعرية الكاملة. ١٠- سواغ (خطب، مقالات، محاضرات).

أنتقل إلى الرفيق الأعلى في ١٩٧٤/١٠/١٩ تغمده الله برحمته الواسعة.

بين البصير وطه حسين

د. نعمة رحيم العزاوي

محمد مهدي البصير وطه حسين علمان كبيران من اعلام الادب العربي الحديث، وقد جمعت بينهما وشائج شبه كثيرة، منها ان كلا منهما حرم نعمة البصر وهو يعدو الرابعة من عمره، وان كلا منهما تهيأت له الدراسة والادب، وان كان طه حسين أيسر من قرينه ذكراً، وأوسع شهرة.

ولعل اهم وشيجة جمعت هذين العلمين الكبيرين، ان لكل منهما موقفا مبكرا من قضية ادبية مهمة، شغلت الدارسين في بداية الربع الثاني من هذا القرن، واثارت جدلاً واسعاً، فألفت فيها الكتب، ودبجت الفصول ، تلك هي قضية انتحال الشعر الجاهلي.

واذا كان الزمن ما يزال يعي هذين الموقفين، فانه لن ينسى كذلك جملة مواقف، تعارض فيها البصير وطه حسين، وكان لكل منهما راي يخالف رأي قرينه، حتى ظن بعضهم ان طه حسين لايكاد يرى رأياً، أو لايكاد يقرر حقيقة ، حتى يسارع البصير الى الرأي فينقضه ، ويبادر الى الحقيقة فيردها. ويتخذ موقفا معارضا لها.

وواضح ان جملة اصحاب هذا الظن لم يفقهوا موقف البصير من طه حسين. ولم يستطيعوا ربطه بالدوافع التي تكمن وراءه، وتبعث عليه، فليس بالبصير حب المعارضة لمعاصره الكبير، وليس به اثارة من اثارة من حسد، او هاجس من شنان، وانما كانت بعض اراء طه حسين تمس نزعة عامة في نفس البصير، تلك هي حبه لأمته وحرصه الشديد على الا ينال احد من أدبها وتاريخها، فالبصير اذن كان مضطرا الى ان يقف لطه حسين بالمرصاد، وان يفند كثيرا من ارائه، وقد صرح بذلك فقال: "وكم كنت أود ان اتحاشى هذا الموقف من طه حسين ولكنه اكرهني عليه إكراهاً، واضطرني اليه اضطراراً، بما يذيع في الناس من اقوال خاطئة، وآراء باطلة". وقال البصير ايضاً "قبل الف ومئتي سنة تقريباً قال المفضل الضبي لقد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح ابداً، وانا ازعم ان طه حسين افسد النقد الادبي في اللغة العربية فساداً يصعب اصلاحه كل الصعوبة، ولئن كان حماد الراوية قد افسد الشعر لانه ينسب ما يشاء الى من يشاء في غير مبالاة ولا اكتراث، رغبة في ان يتفرد بين الرواة بكثرة الحفظ وسعة الرواية على ما يزعم "ان طه حسين قد افسد النقد بطمسه حقائق الادب، وتشويه معالم التاريخ ، سعيا وراء الإتيان بالجديد، وعملا على كسب الشهرة من هذا الطريق".

ولكي نفي هذا الموضوع حقه لابد من تسجيل ابرز الاراء التي خالف فيها البصير طه حسين ، وبيان صلة هذه المخالفة بالنزعة القومية التي تمكنت من قلب البصير واحتلت اقطار نفسه، ووجهت كثيرا من ارائه ومواقفه في الادب والتاريخ.

ان قضية "الانتحال" التي رفع لواءها طه حسين كانت اهم القضايا التي شغلت البصير ، فانبرى يدلي برأيه فيها، ويقيم الادلة على بطلانها أو على التطرف الذي طبع اراء طه حسين بشأنها.

فحين اصدر طه حسين كتابه "الشعر الجاهلي" سنة ١٩٢٦ وذهب فيه الى إنكار الشعر الجاهلي والاعتقاد بأن الادب العربي الحقيقي يبتدئ بالقرآن، قامت ضجة كبيرة حول هذا الرأي، وتسابقت الاقلام الى تفنيده، وإقامة الدليل على بطلانه، او تطرف صاحبه فيه.

وكان البصير يومذاك مدرسا في جامعة آل البيت في بغداد، فقرأ الكتاب قراءة دقيقة، وتدبر الاراء التي ساقها طه حسين فيه، فخرج بنتيجة منطقية هي ان الصواب الاعتراف بكثير من الشعر الجاهلي، ولاسيما المعلقات السبع ، ثم عقد العزم على تأليف كتاب يضمنه هذا الرأي، وقد انجز تأليفه سنة ١٩٢٩، ولكنه لم ينشره ، وانما اكتفى بتدريسه لطلابه في جامعة آل البيت. ثم كان سفر البصير الى فرنسا للحصول على الدكتوراه، وهناك حاول ان يقدم كتابه عن الشعر الجاهلي على انه أطروحة لنيل الشهادة المذكورة، فسمح له عميد كلية الاداب في باريس بتسجيل الكتاب، ولكن المسألة تطورت بعد ذلك حتى وصلت الى المستشرقين ، فقضي على المشروع قضاء مبرما، لأن سياسة المستشرقين الفرنسيين المصطبغة بصبغة علمية ترمي الى انكار شخصية العرب الادبية، فهم يرفضون الشعر الجاهلي كله رفضا تاماً، ولايعترفون بصبغة أدبية فنية للقرآن" ويذهبون ايضا الى ان النثر الفني لايبدأ الإ بابن المقفع". أي انه يبدأ برجل اجنبي".

لقد قال ماسنيون للبصير: " إننا معاشر المستشرقين ننكر ان يكون هناك شعر جاهلي، وليس بيننا سوى مستشرق انكليزي واحد يقول بعكس هذا".

وما زاد ماسنيون رفضا لكتاب البصير انه زار العراق سنة ١٩٣٤. ودرس هوية البصير السياسية، فساءه ان يكون من انصار الوحدة العربية "التي لا تروقه ولا غيره من المستشرقين الفرنسيين المعاصرين". وقد كشف ماسنيون للبصير عن استيائه هذا، فقال له عندما زاره اول مرة: "أأنت تشتغل بالسياسة؟" فقال له البصير: "كنت اشتغل بالسياسة، ولكني الان طالب علم فقط"، فأردف ماسنيون سائلاً: "متى بدأت حياتك السياسية ، ومتى انتهت والى أي حزب كنت تنتمي؟" كان البصير يجيب عن هذه الاسئلة بدهشة حدته على ان يقول لماسنيون: "انك تهتم بحياتي السياسية القصيرة والبسيطة جدا، مع اني لم اشتغل يوما ضد فرنسا". ومهما يكن فأن المستشرقين كتموا فكرة البصير عن الشعر الجاهلي، ولم يسمحوا له بنشرها في دراسة علمية لتبقى فكرتهم التي حملها عنهم طه حسين هي السائدة في رحاب الدرس الجامعي.

غير ان البصير نشر رأيه هذا عندما عاد من فرنسا ، ففي عام ١٩٣٩ صدر له كتابه الموسوم "بعث الشعر الجاهلي". الذي ضمنه دفاعه عن الشعر الجاهلي ومحاولته انقاذ امجد صفحات هذا الشعر من الجحود والانكار، ونعني بها المعلقات السبع.

ومن الاراء التي عارضها البصير، ما ذهب اليه طه حسين من ان ما أنطوت عليه نقائض جرير والفرزدق من طعن في الاحساب، وقذف للمحصنات ، وكلام بذيء ينكره الدين، وتاباه المروءة ، إنما هو ادب رمزي، رمز به هذان الشاعران الى خروج الناس في عهدهما "عن حدود الاخلاق، وانتهاكهم لحرمات الدين،

قال ماسنيون للبصير: "إننا معاشر المستشرقين ننكر ان يكون هناك شعر جاهلي، وليس بيننا سوى مستشرق انكليزي واحد يقول بعكس هذا".
وما زاد ماسنيون رفضا لكتاب البصير انه زار العراق سنة ١٩٣٤. ودرس هوية البصير السياسية، فساءه ان يكون من انصار الوحدة العربية "التي لا تروقه ولا غيره من المستشرقين الفرنسيين المعاصرين".

وانغماسهم في اللذات والشهوات، واقبالهم على الموبقات والمنكرات".

ولايعني الهجاء الفاحش في النقائض هذا فحسب، وانما يذهب طه حسين الى ان الفرزدق اذا عير جريرا ضعة نسبه وذكر اباه عطية بالخسة والنذالة وخشونة العيش فانما يعني صغر شأن الكثرة المحكومة بنظر القلة الحاكمة، وسوء حال الاولى على يد الثانية، وانحطاطها إلى اسفل دركات الشقاء والحرمان والبؤس، وان الاخطل اذا قارن بين اباء جرير واباء الفرزدق وحكم للثاني على الاول فانما يعني ان ضعاف الهمم من الناس يجب ان يقتدوا بسراتهم، وذوي الشجاعة منهم، وان الخانعين في عقر دورهم يجب ان يقتفوا اثر ذوي الهمم العالية ليصلح الفاسد، ويستقيم المعوج من الامور، وتعود الحياة الى مجاريها الطبيعية".

لقد كتب البصير في دفع هذا الرأي مقالاً عنوانه، "سخرية طه حسين من عقول قرائه" جاء فيه ان تورط طه حسين في كلام مثل هذا"يعني دون ادنى ريب سوء ظنه بالقراء، أو قل استصغار حلومهم، واستخفافه بعقولهم ومداركهم، واعتقاده أنهم اناس سذج يمكن التحدث اليهم بكل ما يخطر على البال، مهما كان بعيداً عن العقل، ومهما كان بعيداً عن الصواب والحق، وليست هذه هي المرة الاولى التي سخر فيها طه حسين من عقول قرائه، فقد سبق ان زعم في حديث الاربعاء ان غرام العذريين صورة ظاهرة لشكوى النفس من السياسة التي كانت تتبع على عهد بني امية، وان الامهم واحزانهم ليست سوى الام الجماعة التي تبرم بالحكم، واحزان الكثرة الساحقة التي تئن تحت اقدام الظالمين، وان ليلى وبثينة ولبنى ليست سوى اسماء رمزية لاشياء هي في الحقيقة المصلحة العامة والعدل والمساواة وما الى ذلك.

وجاء في هذا المقال كذلك، "ان الدكتور طه اعرف الناس بان مزاعمه هذه مجموعة مواربات ومغالطات ينكرها العقل، ويأباها الادراك السليم كل الاباءن ولكنه يملأ بها صحفه، ويسوقها في الناس، غير مبال بما يضلل من افكار، ويطمس من حقائق ويفسد من شؤون العلم والادب والتاريخ والنقد". ومهما يكن في رأي طه حسين هذا من الصواب او الخطأ فان البصير قد صدر في انكاره عن اتجاهين:الاول الغيرة على المجتمع العربي والتصدي لمن يمس ما شارع فيه من قيم المروءة والدين والاخلاق ولاشك في ان راي طه حسين على اطلاقه قد يسيئ الى هذا المجتمع في عصر الامويين، الثاني الغيرة على الشعر العربي، والدعوة الى عدم الغلق في تفسير مظاهره وقيمه، وربط هذه المظاهر والقيم بنظرات اجتماعية وسياسية واقتصادية ،لأن مثل هذا الغلو يطمس جوهره، ويذهب بما فيه من فطرة صافية، واصالة عذبة.

صحيح ان القراءة الجديدة للشعر العربي القديم امر لابد منه لمؤرخي الادب ونقاده في هذا العصر، ولكن ينبغي لهذه القراءة الا تجرد الشاعر القديم من تجاربه الذاتية، والا تفسر هذه التجارب الحقيقية، بأنها تأملات عقلية، او مجرد رموز ذهنية لا تربطها بحياة الشاعر الخاصة اية صلة.

قد تكون التجربة الشعرية رمزا لهاجس عقلي، او تأمل فلسفي، وقد تكون تجربة انسانية صرفة، كالتجارب التي تعرض للناس العاديين، وعلى الناقد الذي يندب ناسه لقراءة التجارب هذه قراءة جديدة، ان يفرق بين هذين النوعين من التجربة ، والا ساقه البحث عن الجديد الى ظلم الشعراء، وتوجيه شعرهم وجهات لم تخطر لهم على بال، ولم تدر لهم بخلد.

ومن الاراء التي عارضها البصير، ما ذهب اليه طه حسين من ان أبا نواس كان شاعراً مجدداً، نهج في الشعر نهجاً لم ينهجه المتقدمون، وسار به الى وجهة لم يسر إليها شاعر قبله.

واذا علمنا ان البصير كان يأبى ان ينسب الى احد الادباء المنحدرين من أصول اعجمية اختراع غرض، أو تجديد في فن من فنون الشعر او النثر، ادركنا ان رأي طه حسين في ابي نواس قد مس في نفس البصير ما يمس الملحد في نفس المؤمن من عقائد ومشاعر.

واذا كان البصير لم يرد على طه حسين في هذا الرأي رداً مباشراً ، فأنه حمل على ابي نواس في كتابه (في الادب العباسي) حملة شديدة ، وسفه كل من ينسب اليه التجديد، ووصف هذا الشاعر بأنه من خمود القريحة، وفقر الخيال، بحيث تتعذر اضافته الى المجددين.

وقد أشرت في غير هذا المقال الى ان رأي البصير في الادباء المنحدرين من اصول غير عربية، يتسم بالاندفاع، ويفتقر الى النظرة الموضوعية المتجردة.

تلك هي ابرز المواقف الادبية التي عارض فيها محمد مهدي البصير قرينه ومعاصره طه حسين ، وقد عرضت لها في هذا المقال خدمة لتاريخ العراق الادبي، وتنويها بعلم كبير من أعلامه المعاصرين في ذكرى رحيله.

من الاراء التي عارضها البصير، ما ذهب اليه طه حسين من ان أبا نواس كان شاعراً مجدداً، نهج في الشعر نهجاً لم ينهجه المتقدمون، وسار به الى وجهة لم يسر إليها شاعر قبله. واذا علمنا ان البصير كان يأبى ان ينسب الى احد الادباء المنحدرين من أصول اعجمية اختراع غرض، أو تجديد في فن من فنون الشعر او النثر، ادركنا ان رأي طه حسين في ابي نواس قد مس في نفس البصير ما يمس الملحد في نفس المؤمن من عقائد ومشاعر.

العلامةالبصير قبل(٥٠ عاماً) . . ينفي شاعرية البياتي ويجد في الرصافي شاعراً عادياً . .!

رياض العزاوي

في عام ١٩٦٠/١٩٦١ من القرن المنصرم صدر كتاب (دليل الجمهورية العراقية) الذي احتوى على أنشطة وفعاليات العراق في مختلف المجالات، وتضمن بحثاً عن الشعر في العراق كتبه الدكتور عبد الرزاق محيي الدين أثار حفيظة وغضب العلامة الدكتور محمد مهدي البصير الذي انبرى بالرد عليه وحمله مسؤولية التقصير الذي ورد فيه وتغافله المتعمد عن ذكر بعض إعلام وفطاحل الشعر العراقي.

والعلامة البصير علم كبير من اعلام الأدب والفكر والشعر عرفته المنابر شاعراً يثير حماسة الناس على الانكليز المحتلين في ثورة العشرين وعركته الأيام فخرج منها بحكمة العبقري الواعي الذي ما حطم اليراع ولا نبا بكفه القلم، عرفته قاعات التدريس أستاذا لامعا (للأدب العربي) المعياً يطلق الرأي الصريح الجرئ..

لكن هذا العلامة انقطع في أواخر عمره عن الكتابة والإذاعة والنشر بعد أن كانت حركة الثقافة والفكر في البلد بأمس الحاجة إلى إسهامه الخلاق وإبداعه الشعري وكان رد الدكتور البصير على الدكتور محيي الدين لاذعاً وقاسياً لعدم شموله اسماءاً شعرية عراقية مهمة لعبت دوراً يستحق الذكر فقد قال ما نصه: (ليست هذه هي المرة الأولى التي يأتي بها محيي الدين بما لااستطيع تصوره إذا ما أدخلت كبار أسماء شعراء العراق في المناهج ألا بشق النفس حتى حملت رجال المعارف على إن يفكروا في: الازري الأكبر والسيد حيدر الأكبر والحبوبي والعمري والأخرس وغيرهم.

فلما دخلت هذه الفكرة حيز التنفيذ انتقلت من دور إلى دور، وقبل سنوات وضع كتاب اسمه إذا لم يخطأ ظني (الأدب العربي الحديث للصف الثالث) كان احد المؤلفين فيه عبد الرزاق محيي الدين فيه تراجم شعراء من جملتهم السيد حيدر الحلي وهو شاعر كبير له شعر يفتخر به العراق اخذ له اسطر منشورة كتبها السيد حيدر مقدمةً يظن انه مدح بها والي بغداد.. والسيد حيدر لم يأخذله في هذا الكتاب إلا المقدمة النثرية لقصيدة المدح تلك، فما معنى ذلك.. أهناك إنصاف، أهناك حق؟ هذه خيانة للعلم.. هذا اعتداء، إذا كان ألكاظمي والازري لا يذكر فمن الذي يذكر أذن..؟ ولكن بعد إن رأيت الاعتداء على السيد حيدر في كتاب الأدب العربي الحديث لم أعجب من اعتداء عبد الرزاق محيي الدين على الشعراء الآخرين..!)

وعن رأيه بالشعراء المحدثين وبمن يعجب قال: (البركة في شعرائنا كالشرقي والشبيبي الكبير ومحمد مهدي الجواهري وعبد القادر الناصري واحمد الصافي النجفي وغيرهم هؤلاء في العراق، اما في لبنان فيوجد الشاعر بشارة الخوري فله شعر مجيد ولكن على النمط القديم وعن رأيه بشعر عبد الوهاب البياتي أجاب العلامة الدكتور وهي شهادة تاريخية قال: (كان البياتي تلميذاً عندي في الصف الثالث في دار المعلمين العالية وجاء لي بمسودة ديوان وطلب مني قراءته وبيان رأيي فيه وحينما قرأت الديوان لم أجد فيه شيئاً يسمى شعراً..) فقلت لعبد الوهاب: تريث حتى تتخرج ويقل عملك وتنصرف إلى الشعر بعد ذلك ولكنه لم يتريث ونشر الديوان (ملائكة وشياطين) وقال الدكتور البصير عن الرصافي انه ليس شاعراً مجيداً..!

كيف نظر الدكتور محمد مهدي البصير إلى إشكالية النَّهضة والإصلاح؟

رسول محمَّد رسول

كان الحديث عن "الإصلاح" قد أخذ يظهرُ في الخطاب الثقافي العراقي وفي وعي النُّخب المثقَّفة بالعراق على نحو تدريجي في بدايات القرن العشرين حتى صار مدار اهتمام العين التي أرَّخت للأحداث المصيرية التي دارت رحاها بالعراق في تلك البدايات، خصوصاً الأحداث الساخنة كان لها تأثيرها في الحراك العام بالعراق كالغزو البريطاني للعراق وما تبعه من ثورات عراقية جزئية رائعة تكلَّلت بثورة العشرين الباسلة، وبالتالي احتلال العراق وجعله تحت الوصاية البريطانية.

في تلك الأجواء، ظهرت، محاولات تشتغل في مجال ما بعد النَّص الإصلاحي ليس من قبيل الحديث عن الحاجة إلى الإصلاح، ولا من قبيل تقديم مشروعات إصلاحية فحسب، إنما من قبيل الحديث عن الإصلاح بوصفه حدثاً وقد حصل Real Accident، ومن قبيل الإصلاح بوصفه واقعة وقد حصلت Fact Accident، والإصلاح بوصفه سلوكاً Behavior وقد وجد مفاعيله في المجتمع العراقي.

تحدَّث الشاعر والأديب والمؤرِّخ العراقي محمَّد مهدي البصير (١٨٩٥ ـ ١٩٧٤) باقتضاب في الجزء الأول من كتابه "تاريخ القضية العراقية، ج ١"، الصادر عن مطبعة الفلاح في بغداد عام ١٩٢٤، عن إصلاحات مدحت باشا، وعن حاجة العراق الماسّة إلى الإصلاح، قال البصير: "لولا إصلاحات مدحت باشا لكان من الصعب أن نرى في البلاد شيئاً يُذكر؛ وإليه يرجع الفضل بإنشاء طبقة متنوِّرة في بغداد، مهما كان عدد رجالها قليلاً، وعلمهم ناقصاً، ومهما كانوا مقتصرين على الارتزاق بالتوظُّف عدا زمرة قليلة العدد. وبالجملة فإن العراق ساءت أحواله منذ ألف سنة تقريباً، ولم يُكتب للحكومة العثمانية رفع منار المدنيَّة والإصلاح فيه؛ فهو إذاً بحاجة ماسَّة إلى بثِّ الإصلاح الحقيقي؛ بمعارفه، وزراعته، وصناعته، وتجارته، وكل شيء فيه. ولا يمكنه القيام، طبعاً، بهذه النَّهضة الصادقة ما لم يزوَّد العاملون فيه بالإخلاص الأكيد والاستمرار في العمل" (محمَّد مهدي البصير: تاريخ القضية العراقية، ص ١٤، نشرة الدكتور غسان العطية، لندن، ط ٢ ١٩٩٠).

لا نستطيع أن نجزم، ونحن في القرن الحادي والعشرين، بأنَّ نصَّ البصير هذا هو أقدم نص تحدَّث عن الإصلاح أو عن الخطاب الإصلاحي، لكننا يمكن أن نعتبرهُ من النُّصوص الرِّيادية المهمة في هذا المجال، كما إنه كان مبكِّراً في ميدانه، وهو يعبِّر عما توصَّل إليه العقل العراقي الحديث، في الربع الأول من القرن العشرين، من وعيٍّ نقديٍّ بأهمية الإصلاح وبضروراته المنطقية والقيمية والميدانية في مجتمع مشرقي للتوِّ كان قد خرج من دوامة الغزو الاستعماري وانتهى من حمل مشاعل الثورات الشَّعبية المسلحة، وللتوِّ أخذ يتلمَّس طريق الاستقرار السياسي، ساعياً إلى بناء مرافق الدولة والمجتمع بناء جديداً. أما عن دلالاته المرتبطة بفضاء ما بعد النَّص الإصلاحي، فإن البصير توافر فيها على مجموعة من المفهومات المركزية التي تمثل جزءا من بنية الخطاب الإصلاحي؛ فهو جاء بمفهوم "النَّهضة الصادقة"، وهو مفهوم مركزي يتعلَّق بالخطاب النَّهضوي والتحديثي الذي كان مأمولاً لدى النُّخب المثقَّفة في منطقة الشرق العربي والإسلامي خلال تلك المرحلة. والبصير هنا افترض ضمناً وجود "نهضة زائفة"، ربما قصد بها ما مرَّ على العراق من سبات حضاري وثقافي امتد لألف عام أو ما مارسته الدولة العثمانية طوال احتلالها الطويل للعراق، أو جملة الحركات الإصلاحية التي تدَّعي أنها نهضوية في حين أنها زائفة. ومعيارياً جعل البصير أمام تحقيق هذه النَّهضة مجموعة من العناصر الأساسية، هي: الإصلاح الحقيقي، والإخلاص، والعمل الدؤوب أو المتواصل.

أما مفهوم "الإصلاح الحقيقي"، فهو يمثل جزءا من "النَّهضة الصادقة" التي كانت مطمح النَّهضويين في العراق. وهذا الإصلاح الحقيقي يفترض ضمناً أيضاً وبالتقابل وجود إصلاح مزيَّف وشكلي أو صوري لا ينتج سوى خداعه وهو يُصرِّف معطيات خطابه في الأمة وفي المجتمع، وهي المعطيات الفاسدة التي سعى النَّهضويون العراقيون إلى التخلُّص من سلطتها. كما أن الإصلاح الحقيقي، في منظور البصير، لا بدَّ أن يكون شاملاً ليطول كل جوانب الحياة الثقافية والزراعية والصناعية والاقتصادية لكي يكتسب الإصلاح صدقيته في المجتمع.

الأهم في ذلك، كما دعا البصير إليه، هو بثّ المعارف الخاصة بالإصلاح أو ما هو متعارف عليه اليوم ببثّ "ثقافة الإصلاح" في المجتمع. وفي أي حال، وضعنا البصير في مجال ما بعد النَّص الإصلاحي عندما تحدَّث عن مشروع مدحت باشا الإصلاحي في العراق، وعندما كشف عن غياب الإصلاح فيه على مدى ألف عام مضت حتى تاريخ تدوين رؤيته الخاصة بالإصلاح، وهي الرؤية التي تعكس فلسفته في الإصلاح. ولما كان الإصلاح من منظومة "النَّهضة الصادقة"، في رؤية البصير الفكرية في الربع الأول من القرن العشرين، فإن البصير نفسه كتب بين عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٤٦ الكثير عن تاريخ العراق من الناحية الفكرية والثقافية والأدبية، وقد أصدر، في هذا السياق، كتابه "نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر": نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر، بغداد ١٩٤٦). والذي تحدَّث فيه عن "الإصلاح" ضمناً عبر حديثه عن "النَّهضة" وعن النَّهضويين العراقيين من الأدباء والمثقَّفين والشعراء وغير ذلك من النُّخب العراقية المتنوِّرة بالمعارف في القرن التاسع عشر. وفي خمسينيات القرن التاسع عشر، أخذت بعض الأدبيات والدراسات المعنية بشؤون الإصلاح تأخذ طريقها في الظهور، ومن ذلك كتاب مكِّي الجَّميل "مباحث في الإصلاح، مطبعة العاني، بغداد ١٩٥٥"، وكتاب محمَّد رضا الموسوي "الثورة والإصلاح الاجتماعي: حول السياسة والتاريخ والاجتماع، مطبعة النُّعمان، النَّجف ١٩٥٨"، إلى غير ذلك من البحوث والدراسات التي كشفت عن تحوُّلات الإصلاح والتحديث في المجتمع العراقي خلال النِّصف الأول من القرن العشرين.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
التحرير : علي حسين
التصميم : نصير سليم
الاشراف اللغوي : يونس الخطيب